

وديع ديب

المناقب العربية في شعر المتنبي

بقلم وديع ديب

***

قلّ ان تجد بين شعراء العرب ؛ قديمهم وحديثهم ، من يمثل لك مناقب امته ، بمقدار ما فعل المتنبي . وأكثر ما يتجلى ذلك في مفاخره ومدائحه . فهو عندما يمتدح انسانا ما ، يرى باحثا في خفايا ممدوحه عن فضائل تبرر هذا الاطراء ، وعن سجايا تستوجب هذا الثناء . فاذا به ، لا يرضى لغيره اكراما ، ان هو لم يستحق هذا الاكرام ، واذا به ، لا يطلب لنفسه تعظيما ؛ ان هو لم يكن خليقا بهذا التعظيم ، وهنا يلتقي المادح والممدوح في حلبة المجد على الصعيد ذاته . من اجل ذلك ، كان المتنبي شاعر البلاط وسيده في آن واحد :

اجزني اذا انشدت شعرا فانما ... بشعري اتاك المادحون مرددا
ودع كل صوت غير صوتي ، فانني ... انا الطائر المحكي ، والاخر الصدى
تركت السرى خلفي لمن قل ماله ... وانعلت افراسي بنعماك عسجدا
وقيدت نفسي في ذراك محبة ... ومن وجد الاحسان قيدا تقيدا
وما قتل الاحرار كالعفو عنهم ... ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا؟
اذا انت اكرمت الكريم ، ملكته ... وان انت اكرمت اللئيم ، تمردا
ووضع الندى في موضع السيف بالعلى ... مضر، كوضع السيف في موضع الندى

على ضوء هذه الابيات ، يصح التعرف بعالم الشاعر الذي رسمه لنفسه . وهو عالم يسوده الاحسان المطلق الذي يكفل توطيد الاخوة بين الناس . فمن مناقب الانسان الحر ، ان يحسن لاخيه ، ومن مناقب الانسان الحر ، ان يتقبّل هذا الاحسان بالامتنان . على ان الاحسان لا يجوز لغير من يستحقه : والا انقلب الاحسان اساءة . كما في القول المأثور : اتق شر من احسنت اليه .

بالطبع ، ليست الفضائل وقفا على العربي دون سواه ، ولكن الانسان الصحراوي، الذي عاش في مضارب البداوة، كان من اشد الناس اندفاعا الى العمل بالمعروف ، والعزوف عن المنكر . فالاعرابي الذي اتهمه ابن خلدون بنزعته التخريبية ، وجنوحه الى الفوضى وعدم الانتظام في اي سلك اجتماعي ، هو هو نفسه الذي كان يتغنى بمناقب تصلح لان تكون اساسا وطيدا ؛ لكل حضارة تريد لنفسها البقاء . فقد تغنى العربي بحريته الشخصية ، وتغنى برعيه للذمام ، وتغنى بالشجاعة التي تدفع خصما وترفع ظلما ، وتغنى بالكرم الذي يذهب بالفقر والمذلة ، وتغنى بالفطنة التي تحمل صاحبها على التمييز بين النبع والغرب من النبات ، والغث والسمين من السائمات .

اشار المتنبي ، الى كل هذه المتناقضات التي تحفل بها الحياة العامة ، فدعا الى افضلها بكل قوته ، واردادها اساسا وطيدا لابناء امته . فهو اذ يمجد هذه المناقب ، انما يهدف الى جعلها دستورا للحياة البشرية . قليلون هم الذين فهموا المتنبي على حقيقة دعوته . فاتهموه بالشعوذة حينا ، وبالقسوة حينا اخر . حسبوه وهو يدعو الى تأديب العبيد ، انه يريد استعبادهم ، وخالوه وهو ينادي بتقويم الملوك ، انه يطمع بعروشهم . واستغل حاسدوه دعوته هذه على وجهها الظاهر ، فكادوا له بما وسعتهم الحيلة ؛ لكنه بقي راسخ الايمان بنفسه ، عظيم الثقة بفضائل قومه . واحبها الى قلبه ، هذه البداوة البريئة التي ما داخلتها لوثة المدنية الكاذبة ، القائمة على المظاهر الزائفة ، والدعايات المضللة . فهو يوم كره العبيد ، لم يفعل ذلك من اجل الوانهم القاتمة ، وانما من اجل نفوسهم المظلمة ، وان المصيبة لتعظم كثيرا ، يوم يصبح العبد سيدا والحر مستعبدا :

من حكم العبد على نفسه ... احمق من عبد ومن عرسه
مرت يد النخاس في رأسه ... فلا ترج الخير عند امرئ

تظهر هذه النزعة جلية في هجاء كافور الاخشيدي ؛ الذي رفعته التقادير العمياء الى مصاف الملوك ، وما هو من الملوك في شيء .

العبد ليس لحر صالح باخ ... لو انه في ثياب الحر مولود ..
لا تشتر العبد الا والعصا معه ... ان العبيد لانجاس مناكيد ...
من علم الاسود المخصي مكرمة ... اقومه البيض أم آباؤه الصيد..
أم اذنه في يد النخاس دامية ... أم قدره وهو بالفلسين مردود .

يلوح لي ، ان الحرية في شرع المتنبي ، ليست ثوبا تخدع به العين ، وليست عرشا يرتفع اليه المرء بالحيلة والصانعة ، وانما هي كرامة يعيش لها الانسان ، ومجد يصل اليه بالجهاد والتضحية ؛ وعليه فما احتقاره للضعفاء، الا لانهم راضون عن عيشهم الذليل ، قانعون بما قسم لهم الطغاة المستكبرون .

ذل من يغبط الذليل بعيش   رب عيش اخف منه الحمام
كل حلم اتى بغير اقتدار   حجة لاجىء اليها اللئام
من يهن ، يسهل الهوان عليه ،   ما لجرح بميت ايلام

على ان الذل ، ليس وقفا على العبيد وحدهم ، وليس هو مقصورا على العامة دون الخاصة ، فكم هنالك من ملك هو اولى بالتحقير من عبده الذي ينحني بين يديه . واذا فليس لانسان من فضل على اخر ، الا بالاباء والشمم .

اذا الفضل لم يرفعك عن شكر ناقص   على هبة، فالفضل فيمن له الشكر
دعاني اليك العلم والحلم والحجى   وهذا الكلام النظم والنائل النثر
وجنبني قرب السلاطين مقتها   وما يقتضيني من جماجمها النسر
فاني رايت الضر احسن منظرا   وأهون من مرأى صغير به كبر

وهكذا ، فلم يكن المتنبي ممن يؤخذ بمظاهر الاشياء . فقد يتظاهر المرء بالشجاعة وهو جبان ، وقد يتظاهر بالكرم وهو شحيح خسيس ، بيد ان اللبيب العاقل يدرك جميع هذه الاشياء :

اذا الجود لم يرزق خلاصا من الاذى   فلا الحمد مكسوبا ولا المال باقيا
وللنفس اخلاق تدل على الفتى   أكان سخاء ما اتى ام تساخيا

لقد صح عند المتنبي ، ان المرء كريم باعماله ومآتيه، وليس بابائه واجداده . فالانسان قبل كل شيء ، وبعد كل شيء ، هو ربيب نفسه ، وصنيع طموحه . الطموح مصدر كل فضيلة ، والدافع الى كل مكرمة . والفتى ، اي فتى ، لا يكون كريما بوسامة وجهه ونصاعة جلده ، وانما هو كريم بنسبة ما تستهويه المعالي وبمقدار ما يعيش للسيف والضيف . تلك هي امنية العربي في اوضح حدودها :

يحب العاقلون على التصافي   وحب الجاهلين على الوسام
وآنف من اخي لابي وامي   اذا انا لم اجده من الكرام
ارى الاجداد تغلبها كثيرا   على الاولاد اخلاق اللئام
ولست بقانع من كل فضل   بأن اعزى الى جد همام

فالطموح ، في شرع ابي الطيب ، جناح المجد والمجد لا يكون في طلب الملذات والتهافت على الشهوات ، ولكنه النزوع الى المعالي والتطلع الى المجهول . ان خير مائدة يجلس اليها الانسان الحكيم ، هي مائدة المعرفة ، وخير عرش يتربع عليه هو عرش البطولة . وعليه ، فالانسان المتفوق هو ذلك الرجل الذي يجمع بين السيف والقلم .

تركنا لاطراف القنا كل شهوة   فليست لنا الا بهن لعاب
اعز مكان في الدنى سرج سابح   وخير جليس في الزمان ، كتاب

. عظمة هذا الشاعر ، لا تتوقف بحسب رايي المتواضع ، على شاعريته المجنحة ، او على ما في بيانه من روائع الصور ، وطرائف الفكر ، وانما هي متوقفة في الدرجة الاولى على ما في هذا الشعر من مناقب انسانية كريمة، احلته في الذروة من منازل الشرف . ان الشاعر مهما يبلغ من الابداع الفني ، لن يكون خالدا الا اذا اتسم فنه بالنزعة الانسانية الخيرة ، التي من اهدافها النهوض بالانسان من مهاوي الذل والخنوع ، الى سدرة العز والكرامة .

ان عظمة شكسبير مثلا ، لم تكن في ما قدم من رحيق الشعر ، وانما هي في ما قدم من رحيق الشعور ، نحو الانسان المعذب على ايدي الطغاة الماكرين . هذا ، وما الاجماع على تقدير شعر المتنبي ، الا من القبيل ذاته : نفي شعره من المناقبية العالية ، ما يصلح لانشاء اجيال عربية قوية ، كالتي حلم بها نيتشه في ساعة تطلعه الى جيل جرماني متفوق . اي فتى ، يقرأ شعر ابي الطيب ، ولا يشعر في قرارة نفسه ، بانه مدعو لتحقيق الغايات البعيدة ، التي من شانها ايصاله الى كواكب السماء :

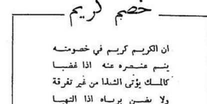
اذا غامرت في شرف مروم   فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت في امر حقير   كطعم الموت في امر عظيم
يرى الجبناء ان العجز عقل   وتلك خديعة الطبع اللئيم
وكل شجاعة في المرء تغني   وما مثل الشجاعة في الحكيم

كان ابو الطيب واثقا من نفسه ، وكان الى ذلك ، مؤمنا بان الحياة لا تليق الا بمن يعمل من اجل الحياة ، من اجل تحقيق ذاته ، وتادية رسالته باي ثمن كان . حتى ، ولو ادى ذلك الى تقديم نفسه قربانا على مذبح التضحية ، في سبيل احقاق الحق وازهاق الباطل . وفي شرعه ، ان فضيلة الاحسان الى الناس ، تقع على راس جميع المناقب الكريمة ، وانها الفارق المميز للبشر عن سائر المخلوقات ، تلك هي فلسفته التي لا يرقى اليها الشك .

فاحسن وجه في الورى وجه محسن   وايمن كف فيهم كف منعم
واشرفهم من كان اشرف همة   واكثر اقداما على كل معظم
لن تطلب الدنيا ، اذا لم ترد بها   سرور محب او مساءة مجرم

وبعد ، فان كان لي من امنية ، اتمناها على وزارة المعارف في لبنان ، وعلى غيرها في الامصار العربية الشقيقة ، فهي ادراج شعر المتنبي في كل برنامج ادبي ، على مستوى رفيع . ذلك لانني واثق من ان شاعرا جبارا كهذا ، باستطاعته ان ينشيء جيلا قويا جبارا ، في مقدوره غدا ، ان يبسط جناحيه على هامة الشمس .

وديع ديب



خصم كريم

ان الكريم كريم في خصومته
ينم عنصره عنه اذا غضبا
كالمسك يؤتى الشذا من غير تفرقة
ولا يضن برياه اذا التهبا

القاهرة   سلامه خاطر



ابو فراس الحمداني

اعدت هذه القصيدة لتلقى في مهرجان « ابو فراس » الذي كان
مقررا اقامته في ٢٦ سبتمبر في مدينة حلب
ثم تاجل الى اجل غير مسمى

عدنان مردم بك

•

شعر له من لفظـه قيثار … ما كرّ ليل واستجدّ نهار
ان رق اغرى بالصبابة خافقا … فيخف قلب للهوى ويثار
واذا بجزل اللفظ اشرق لفظه … خنس الاريب وزاغت الابصار
ما كان بدعا ان تزيغ نواظر … عجبا وكان من البيان عقار
غرر البيان على المدى وضاءة … وكانها دون العيون منار
والشمس يحجبها المغيب فتختفي … ولها من الليل البهيم مثار
والبدر يدركه السرار فينطوي … ولكم طوى البدر المنير سرار
وترى البيان يشع عن مثالق … ما غام ليل او دجا اعصار

* * *

للمجد ما غنيته من معجز … لا في عروض يقتنى ويعار
رمت الحياة كريمة فتوعرت … سبل الحياة وقلت الانصار
فسريت وحدك في طريق شائك … فغفرت به عن شدقها الاخطار
ووردت غمر الموت تقتحم الردى … ليصان عرض عن اذى وذمار
تتقحم الاهوال في جنح الدجى … وعليك من صدق اليقين ازار
لا الصعب يثني من خطاك اذا دعا … مجد ولون ان المسالك نار
اعددت للحدثان عضبا لم يكن … يخشى عليه نبوة وعثار
لو صح عزم لم يضق ذرعا فتى … شام البوار لدن تشام بوار

* * *

لله انت اذا الخطوب تكالبت … دون الحمى وتخاذل الاحرار
ترد المنية غير هيّاب لها … ثبت الجنان وللردى اظفار
وكان قلبك في البديهة شعلة … سطعت واحداث الزمان غبار
وكان رايك حين يطرق حادث … في مدلهم فيصل بتار
ما كان عن شرف يصدك زاجر … همم الكبير مع الخطوب كبار

تجري اذا جهد الرجال من السرى   واذ الفرار سرى أقمت وساريا
لا يستثير بك النوازع هاجس   او كان تنهب قلبك الاوطار
يأبى الوقار على كريم في وغى   ان لا يكون مع الجهاد وقار

* * *

ليس الاسار بموهن لك همة   او كان ينقص من علاك اسار
الشمس يحجبها الغبار ولم يكن   ليغض من قدر الشموس غبار
والليث يرهب بالحديد مكبلا   كالليث في الآجام حين يثار
لكنها الزؤبان ليست تتقي   وديارها للطامعين ديار
العار حيث جرت جرى من دونها   خببا وان مكثت فثم العار
اعطانها نهب المغير واهلها   هدف يصاب اذا رمى جزار
ما كان يمنع عن اذى حرية   ما لم يكن دون الحمى احرار
شرف الديار مرده لعصابة   عز الديار بهم وعز الجار

* * *

ماذا (بخرشنة) لقيت من الاذى   والخطب ساجم وبله مدرار
الليل فيها كالمنية مفزع   ونجومه الاوجاع والاعسار
قتم تلاطم كالعباب ودونه   ما انفك يعصف للهوى تيار
بحران دونك لا يهون اذاهما   الليل طام والهوى زخار
وتمر ساعات تطيب حيالها   جرع المرار وهل يطيب مرار
ترنو الى الافق البعيد لها جس   ما انفك يقدح ناره التذكار
فتشيم (منبج) صورة عبق الشذا   منها وماج السحر والانوار
بلد تألق بالفخار ولم يكن   عن ارضها يوما يغيب فخار

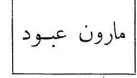
* * *

يهفو فؤادك للحمى ما غردت   قمرية وهنا وناح هزار
فتغص عينك بالدموع تحسرا   وبشب من برح الحنين اوار
ما كنت تفرق في اسارك من ردى   والموت حتم ليس عنه فرار
لكنه حب لأمك خالص   ما شابه طمع ولا استئثار
حب الى شرف ترد اصوله   وبكسبه تتنافس الاخيار
تخشى عليها مشفقا غصص الردى   وتخاف ما تخفي لها الاقدار
ويذيبك الوجد الملحُّ الى الحمى   شوقا اذا ما اغفت السمار
فاخال قلبك ريشة في عاصف   لا يستقر لها الزمان قرار

* * *

قيثار شعرك لا تني انغامها   صداحة ماكرت الاسحار
الحانها شرف الجهاد اذا دعا   داعي الجهاد ولبت الانصار
في كل لفظ بلجة لمكارم   سطعت كما في الافق ضاء نهار
اغليت شعرك مكبرا من قدره   ان الثواقب شانها الاكبار
ورغبت عن دنيا الملوك ولم تحد   ما يصطفى فيها وما يختار
ووقفت قيثار البيان على الحمى   فعلى البيان وعزت الاشعار
ما كان شعر المرء الا عرضه   والحر كان على الزمار يغار

دمشق   عدنان مردم بك



بقلم انطون قازان

•

الذي نقول فيه هو من ذوي الحقوق على ادباء العصر وطلابه .

لقد علم ، ونقد ، ووجه ، وروى ، فكان مجموعا بناء خيرا .

انه واحد من المخرجين الاقطاب ، الذين علموا كما يصلي الكهان على المذابح ، وكانهم يشاهدون الله في كل مرة ترتفع بهم التقوى الى سر التقدمة .

على انه ما حرم القارئ ليزوِّد الطالب ؛ بل غمر الاثنين نواله .

الذين تنسموا منه العلم « نرقوا على الدنيا الشذا » ، والذين استمتعوا من طيباته زينت لهم العزلة لتانس عين وتستزيد .

لقد شاء بعضهم ان يميز بين مارون عبود المعلم ، والصحفي ، والناقد ، والقاص ، والشاعر ؛ على ان هناك دعائم اساسية تنهض عليها شخصيته واسلاكا ذهبية تشد اجزاءه اليه ليظل وحدة متماسكة بارزة .

اهم خصائص هذا الرجل انفلات واختلاط .

انه انفلات قبل كل شيء ، انفلات من الاطار التقليدي ، من الجمود والتزمت ، وتحرر بالغ حتى من موضوعه وهو يعالجه ، ولعل في ذلك ما يسبغ متعة جديدة على كثير من ادبه .

لقد تعشق مارون عبود اول ما تعشق كبار اصحاب الفكر الحر في الغرب ، وبدأ ذلك عن طريق فرح انطون و « الجامعة » ؛ فنادى بفولتير وروسو ورينان ولامنه ونيتشه وسواهم من الذين اطلوا على الدنيا خفافا من رواسب التقليد وثقالا بالجدة .

ثم تمثل في تحرره احمد فارس الشدياق بمصارعاته ، واديب اسحق بعنفوانه ، وفرح انطون بانطلاقاته الدائمة ، وهكذا اطل بثورية مشبعة ظلت الدعامة الاولى لادبه .

هذا المنفلت من تقاليد زمانه ما وضحت مناحيه على العين ، فهو اختلاط هانئ ، لا تجزئة في شخصه ، ولا احتمال تفريق . لقد تمازجت الفنون فيه وتداخلت الالوان حتى غدا لولبة ارهقها الدوار لتبدو لونا واحدا .

ان من يريد أن يطبق اصول فن معين وقواعد لون ادبي خاص على ما كتب مارون عبود يعود منه على غير وفاق ، فالرجل قصته على هواه ، ونقده على هواه ، واسلوبه كما يشاء ، على ان هذا الهوى طريف ، جديد ، محبب .

امتاز نقده بجرأة فائقة بلغت احيانا حد التجني ؛

ما حالت صداقة بينه وبين ما يعتقده حقا ،

كثر الرفض عنده وقل الرضى ،

انه قارئ كبير ، تتبع حركة الادب العربي المعاصر بدقة واستيعاب ، وابدى رايه في كل مناسبة وحول كل اثر ؛ فهو القارئ الدارس .


انطون قازان

لقد حارب بسخرية لاذعة مقررات كثيرة وما ونى عن مناقشة اقطاب كان لهم بسطة على العصر وهيمنة .

على انه في مجمل نقده ما تاق الى مفهوم علمي معين ولا انشأ مدرسة خاصة ، بل ابدى رايا صريحا ممتعا ، بني على حس جمالي صحيح ، وذوق متطور ، ومقارنات موفقة ، فكان الناقد الذي يقرأ بلذة وفائدة .

اما القصة فلمارون عبود جولاته في ميدانها الفسيح . لقد غلب على قصصه اللون المحلي ،

يطل عليك منها قرويا عبقريا ؛ على لسانه كلمات ، وفي عينيه احاديث ، يحمل اليك اباريق خمر ، وحقاق طيب ، من اريج الصنوبر ، وعبق الشربين .

هنا الجبل بمواسم اعياده ومراسم افراحه ، وتقاليده وعاداته ،

المرافع ، والعتابا ، والامثال العامية ، وقباب الكنيسة ، والدروب السلطانية ، والمختار ، والناطور ، والفلاح ، والشماس ، كلها صور حية لجبل عريق .

على ان اروع ما يطبع هذا النتاج الضخم سرد جميل ووصف دقيق . فقصصه كما اسماها هو « وجوه وحكايات » ، و « احاديث قروية » و « اقاصيص وذكريات » : حكايات ولوحات .

انه هو ذاته هنا شأنه في غير مكان من ادبه . قلت التصاميم عنده ، كانه يكره التمهيد والاستعداد ، فهو سجية منطلقة على ذكاء وسخرية .

تفوّق مارون عبود في الوصف القصصي ، كاني به ما فتح عينيه على مشهد الا ورأى فيه ، وحوله ، وقبله ، وبعده ، كل ما يمكن ان يرى فاستنفده ؛ تحس على يديك من حروفه اشواك العليق في وعر الجبل ، ثم يمتزج باجزاء نفسك على افياء من الاودية الظليلة . ثم يستطرد الى ملاحظات قوية جديدة فيبلغ اللبانة ، ويعرف ان ينتهي ، فالمشهد

سروفا

(سروفا كلمة لا معنى لها)

سروفا .. سروفا ! وهل فوق هذا غموض يجلجل في غـور نفـسي ؟
طويـت الحيـاة وساعاتهـا ومزقـت شوقـا اعاجيب حسي
شربـت بثغـر مرير الرحيـق وبالـدم خضبـت أثـواب حسي
هـجرت فنائـي فايقظتـه ودنسـت باليـأس اقداس قدسي
سروفا . . . . بقية همس

غنت لي

في هداة الحب غنت لي بسكرتها انشودة رتلت مذ اوقظ البشر
انشودة لا تغفـى في تقادمهـا في كل ثغـر جديد لحنها العطر
غنت وغنت وجالت بي مداعبـة انامل رخصة روحـي لها وتـر
غمرت وجهي بصدر جل من شبـه مستروحا خدرا ما فوقه خـدر
وغبت فـي لحظـة مثلى مبرأة من كـل ما خطه فـي لوحه القدر

حلب

علي الناصر

اكتمال وحسب .

ان القصة عند مارون عبود ثورة على اوضاع ، وتفلت من اساليب ، وابراز لوجوه ، والتزام لفكرة .

ما بعد عن نوازع قومه، ولا تغاضى عن شؤون زمانه ، بل اتصل بهموم الشعب بديمقراطية بارزة في تصرفاته واساوبه ، فكانت له قصص شعبية ملتصقة بالجموع ، ومعبرة عن اكثر من امنية ونزعة ، كل ذلك بأسلوب سهل المنال ، تراوح بين الفصحى والعامية فكانت له نكهة فريدة ممتعة.

مارون عبود كاتب يشتاق اليه ولا يمل .

قد لا توافقه على كثير من آرائه ، وقد تطلب منه غير ما اعطاك، ولكنك تقراه حتى النهاية ، اله ياخذك بيده ليرقى بك الى مشارفه ، على طرفة هنا ، وبراعة هناك ، فتقطع المجال وانت على جمام من نفسك .

ومتى علمت انه بدا شوطه الادبي في مطلع العصر ، وفي زمن ضاقت بالاساليب الساحر ، وبات كل قلم مسؤوما ، ادركت اي فضل له في تطويع الحديث وتمليح الكتابة .

لقد غلب على امر الصفحة في الكتاب عنده لتنتشر صفحات للحياة .

ان الكتابة عند مارون عبود احاديث على الشفاه لا خطوط ولا اوراق ، فالعفوية والطبعية ، تميز بالواقعية الصارخة ، ولا عجب فهو ما عرف البطالة الحالة بل كان جهدا موصولا .

عذب الفاكهة ، كثير الحكايات ، ما اطل عليك الا واطرفك بالحديث الرقية نثره كما حركاته ، انه يكتب باليد وبالعين وبالشفاه ، فيرى كاملا في كل ما يكتب . كتب ، وكتب كثيرا ، وعلم ، وما اكثر من علم ، فكان له على طلابه سلطان واي سلطان : قام على إعجاب ، ما تمكنت الايام ان تنال منه بل زاد رسوخا وايمانا، ولو جمع الراغبون في تتبع تعاليمه وورود شرعته لما اتسع لهم مكان .

هذا الجاهد المعطاء ، ما كان قوة متعبة بل عانية دافقة ، تبعث المواهب من سكونها ، وتطلق الافكار من عقالها، وتدل الناظرين الى التحرر والتطلع نحو آفاق جدد .

انه من اولي الحقوق على ادباء العصر وطلابه .

انطون قازان

ظمأ

تمثيلية قصيرة

بقلم الدكتور محمد حاج حسين

هو : كيف استطيع ان اعبر لك عن شكري لمجيئك معي الى هذا المكان الذي تحفه الشاعرية ، وتجنحه مناظر الطبيعة الشادهة ؟ لن انسى هذا الجميل الذي طوقت به عنقي..

هي : لا تشكرني .. انا التي يجب ان تشكرك لانك فتحت مغاليق قلبي، ودفعت النور اليه .

هو: ما انصع محياك الذي تترقرق فيه العذوبة ، وتهجع به الطمانينة ، وتتجلى فيه الوداعة ، وتتهادى فيه البراءة . انك مثال الجمال الذي تتوق اليه النفس التي تحس الظمأ للفتنة الآسرة .

هي : (محمرة الوجه) شكرا على هذا الاطراء الذي لا استحقه .

هو : انت تستحقين اكثر منه يا سامية .

هي : وكيف عرفت اسمي ؟

هو : وهل تخفى علي خافية ؟

هي : من انت ؟ وما اسمك ؟ وما هويتك ؟

هو : ستعلمين فيما بعد .

هي : ولماذا ليس الان ؟

هو : لان شخصي لغز عميق يجب ان يدفن في صدري .

هي : ولماذا ؟

هو : لان اسمي يثير الفزع في كل الناس .. ولهذا اكتمه عنك ..

هي : مستحيل . لا اصدق هذا .

هو : يجب أن تصدقيه ..

هي : ارجوك ان تعرفني بشخصك.

هو : لو عرفتيني لاسرعت في الفرار .

هي : جئت معك بملء ارادتي .. فكيف أهرب منك ؟

هو : شخصي يثير الرهبة ..

هي : وانا لا اخشى الرهبة .

هو : وينشر الشر في كل نفس ..

هي : انك تبالغ كثيرا .

هو : الا يمكن ان نتفاهم دون ان تعرفي شخصيتي ؟

هي : كما يحلو لك ..

هو : الحق انني لم ار في حياتي الطويلة فتاة لها مثل جمالك الذي ينفث السحر في كل قلب .

هي : حياتك الطويلة ! ..

هو : وماذا في هذا من غرابة ؟

هي : كل الغرابة .

هو : واين هي ؟

هي : انك فتى غض الاهاب ، فكيف تنسق هذه السن مع حياة طويلة ؟

هو : صحيح .. وانت في السادسة عشرة من عمرك الغضيض .

هي : وكيف عرفت ؟

هو : الم اقل لك انني اعرف كل شيء .. الماضي والحاضر والمستقبل. كلها تحت تصرفي افعل بها ما اشاء..

هي : وانى لك هذه السلطة التي لا تتوفر الا لله .

هو : سلطتي نابعة من قوة شخصيتي ..

هي : انت كبير الثقة في نفسك .

هو : انها المرة الاولى التي تخرجين فيها مع شاب غريب عنك .

هي : صحيح .

هو : الم تلقنك امك ان الخروج الى نزهة خلوية مع شاب غريب خطيئة لا يقرها الله ، ويثور بها المجتمع .

هي : فعلت .

هو : ولماذا تمردت على تعاليمها ؟

هي : قوة خفية لا قبل لي بها دفعتني اليك .

هو : الا يوجد تفسير لها عندك ؟

هي : لا استطيع تعليلها .

هو : حاولي .

هي : يستحيل . عندما وقع نظري عليك اكتسحني تيار من الكهرباء هز مني الاعماق ، ودفعني اليك معطلة الشعور ، سلبية الارادة.

هو : انني أقدر موقفك .

هي : ما السر الذي دفعني اليك دفعا ، وانا المتعصمة بالشرف والفضيلة .

هو : قوتي التي لا تقاوم .

هي : وما مصدرها ؟

هو : قوة شخصيتي التي تحدث كل شيء ..

هي : لماذا لا تنقع غلتي بالقاء بعض الضوء على هذه الشخصية ؟

هو : رويدك ، ستعرفينها عما قريب .

هي : كما تريد .. لا اعتراض لي على مشيئتك .. واستطيع أن اقول لك ان الكثيرين اخذوا بجمالي ، وحاولوا ان يهمسوا في اذني اغاريد الحب ، بيد انني كنت اصم سمعي عن عباراتهم الوامقة .. اما انت ، فشيء اخر .. ان نظرة منك تسلبني حريتي ، ولو امرتني ان اقذف بنفسي من اعلى قمة في الجبل لما ترددت لحظة واحدة . ان قوتك لا تقاوم .

هو : انت مثال الجمال الذي جسده الله على عذراء كلها اغراء .. لقد خلبت لبي ، ولاول مرة في حياتي تحرك قلبي ، ورفرف ذبيحا بين جوانحي .. لقد كنت صلدا كالصخرة لا استجيب لنداء الحسن ، ولا يثيرني الجمال ، بل كنت ادوسه بقدمي ، وادفعه دفعا الى الخطيئة ليتمرغ في الوحل ، وعندها اجد لذة نارهة متشفية ؛ واطلق ضحكة ساخرة ، وقد خضبت هذا الجمال الذي يسكب الراحة في القلوب بالعار وجللته بالشنار ..

هي : غريب .

هو : لا غرابة البتة .

هي : امن المعقول ان تنطوي على نفس شريرة ، وانت في مثل هذا الجمال الرقراق الاضواء ؟ ان الجسد مرآة للنفس ، فاذا كان جميلا لا بد ان تكون النفس جميلة تحمل الخير والحب الى الجميع .

هو : فلسفة ضالة لا معنى لها .

هي : لقد قرات هذا في الكتب .

هو : لا تصدقي الكتب . انها اكاذيب لفقها اناس ليخدعوا الساذجين

هي : انك بهذا تقضي على اروع نتاج لحضارتنا .

هو : حضارتكم كلها شرور واثام . ورسالتي ان اقضي عليها لاريح الدنيا منها ..

هي : من انت حتى تزعم هذا ؟

هو : انا القوة الخفية التي تبذر الشر في كل مكان .

هي : ابدا .. انت نبيل رقيق ..

هو : اخبرتك بالحقيقة

هي : الحقيقة ! ..

هو : نعم الحقيقة الضائعة التي لا يعترف بها احد ..

هي : كلنا ننشدها ..

هو : ولكنكم تزيفونها .

هي : بل نقدسها .

هو : كل انسان في عالمكم يرى الحقيقة من زاويته الخاصة ، فمتى امنت له مصلحته اعترف بها ، وشدا لها اعذب اغانيه .. اما اذا تنكرت لمصلحته ثار بها ، وجدف عليها ، وقذفها بكل سبة .

هي : تعلمت ان الحقيقة اسمى شيء في الوجود ..

هو : هل سمعت بافلاطون ؟

هي : نعم . فيلسوف يوناني عظيم .

هو : قال هذا الفيلسوف : لو تجسدت الحقيقة امراة جميلة لعبدها الناس .

هي : جميل .

هو : انت الحقيقة الوحيدة في هذا الوجود .

هي : (محمرة الوجه) ماذا تقصد ؟

هو : لقد خرجت من مكمني هذه الصبيحة ارود هذه الدنيا الكدراء ، وخطر لي ان ابحث عن الحقيقة فيها ، وضربت في شوارع هذه المدينة على غير هدى ، اتامل الغادين والرائحين ، فتقززت منهم ، وكدت انكص على عقبي ، واعود الى مكمني دون ان اثير الشر في نفوسهم ، واثير الخصومات بينهم .. لانني لم ارهم يستحقون هذا الشر الذي اوزعه عليهم دون حساب ... لانهم اضاعوا الحقيقة ، ولم يدركوا كنهها .. وفجاة علق بصري بك ، وانت تلجين مخزنا يبيع الساعات الانيقة .. وتسمرت في مكاني .. لقد رايت الحقيقة تتجلى فيك ، وتومض على صبابك الفرد ، وتبرز من عينيك الساجيتين ، وتتهادى على اهابك الغض .. وخفق قلبي المتحجر .. الذي لم يعرف الرحمة منذ الاف السنين .. ودنوت منك ، وتحرك قلبي ، والتهب وجهك بالحمرة ، فقد تسللت اليك بقوتي التي لا تقاوم ، ولما صافحتك اضطربت اشد الاضطراب ، وخرجت معي تتابطين ذراعي لا تعين من امرك شيئا .. وحملتك الى هذا المكان الشاعري .. الم يحدث هذا ؟

هي : حدث .

هو : لو لم تكوني الحقيقة لما جشمت نفسي مشقة المكوث معك دقيقة ..

هي : لماذا هذه الكبرياء ؟

هو : لقد كنت انوي لك الشر .. بيد انني عندما رايت البراءة التامة في ملامحك الوضيئة تخاذلت ، وتراجعت .. وصحبتك الى هنا لاصونك من عبثي ، ولاحدثك قليلا من الوقت .. ثم اعيدك موفورة الكرامة ناصعة الجبين .

هي : ولماذا كل هذا ؟

هو : لانك الحقيقة .. ثم لماذا تخليت عن اخلاقك المتينة فجاة عندما رايتني ..

هي : لا اعرف .

هو : انا اعرف .

هي : ماذا ؟

هو : لانك رايت الحقيقة .

هي : اين ؟

هو : في انا ..

هي : انت ..

هو : لقد جسدت الجمال الامثل في صورتي ، فانقدت وراءه ، واستجبت الى ندائه ، ودست على كل المقدسات التي عاشت في ذهنك نضيلة سامية .

هي : قد يكون هذا .

هو : اعتقد انك غير نادمة على مجيئك معي الى هنا ، اناجيك ، واسكب في قلبك الغزل ..

هي : صحيح . لست بنادمة .

هو : ارايت اذن مصداق كلامي ؟

هي : انني فاقدة الارادة الان تماما .

هو : تستطيعين ان تذهبي الى بيتك مصحوبة بالسلامة .

هي : لن اذهب .

هو : ولماذا ؟

هي : (تطرق براسها، ولا تجيب) .

هو : انني اعيد لك حريتك .

هي : حريتي ان اكون معك .

هو : الفتاة الطيبة لا تجالس غريبا عنها لان هذا حرام في عرفكم .

هي : صحيح ...

هو : وكيف تخرجين على تقاليدكم المريضة ..

هي : تقاليدنا سليمة لانها نتاج القرون المديدة حتى رسخت في اذهاننا فضائل نيرة .

هو : انها لا تستحق الاحترام لانها وضعت قيودا لا نهاية لها لتكبيل عواطف الانسان ، وتمزيقها باسم الاخلاق .

هي : الاخلاق عماد مدنيتنا ، وعنوان سمونا .. ولولاها لانطلقت الغرائز مجنونة تجتث كل شيء في طريقها .

هو : واي ضرر في الجنون ؟

هي : اذا لم يكن في الجنون الضرر ، فعلى الدنيا السلام .

هو : الجنون في نظري اعظم فضيلة لانه يتساق مع الطبيعة البشرية التي تود الانطلاق من هذه السجون العديدة التي حبستها فيها هذه التقاليد التي لا حصر لها .. والتي اوجدها اناس تافهون عجزوا عن تحقيق وجودهم ، فتغنوا بهذه الترهات ، وحجروها فضائل لكم .. ينحني الناس في الظاهر لها احتراما.

اما اذا اطمئنوا الى عدم وجود الرقباء اندفعوا مزورين عنها على شريطة ان يخفيهم الظلام .

هي : هذا كلام لا افهمه .

هو : هل ضقت ذرعا بسماعه ؟

هي : لم احضر معك لتحدثني بهذا الكلام الذي لا اسيغه .

هو : ولماذا جئت ؟

هي : وهل اعلم ؟

هو : طبعا لا تعلمين .

هي : هل لك ان تنير طريقي ؟

هو : انا اعلم كل شيء ..

هي : اذن اخبرني لماذا فقدت ارادتي ، وجئت معك الى هذا المكان .

هو : اعجبت بجمالك ، فعطلت ارادتك ، وانسقت ورائي الى حيث ابغي .

هي : والنهاية ؟

هو : نهاية ماذا ؟

هي : نهاية هذا الحب .

هو : الفناء والموت .

هي : الحب لا يموت .

هو : يموت ، ولا يبعث .

هي : ارجوك ان ترحمني .

هو : الرحمة خور في الطبيعة .

هي : في قلبي نيران مضطرمة تسعر لي العذاب .

هو : تخلصي منها .

هي : خلاصي على يدك .

هو : ماذا تريدين ؟

هي : تعال معي الى البيت ، وتقدم كفتى شريف الى اهلي لتخطبني .

هو : انت تريدين هذا ؟

هي : نعم .

هو : واذا رفضت ؟

هي : اخلاقك النبيلة تمنعك من هذا .

هو : طبعا .. (بعد لحظة) يا عزيزتي لن اخطبك .

هي : (منقبضة) ماذا تعني ؟

هو : كلامي واضح .. لن اخطبك.

هي : ولماذا ؟ الم تعجب بي ؟ الم تقل لي انني اجمل فتاة وقع نظرك عليها. انني فتاة مسكينة.. ولو علم اهلي بخروجي معك لقتلوني .. انني استجدي رحمتك .

هو : لن اخطبك .. إنصرفي عني.

هي : لا استطيع ان اتزحزح من مكاني .

هو : انت حرة . ابقي ما طاب لك.

هي : (تبكي) .

هو : انت تبكين .

هي : ابكي على حظي الاسود .

هو : انني ضعيف امام الدموع .

هي : (توالي النشيج) ..

هو : ارجوك ان تصغي الي .

هي : انني مصغية .

هو : الحقيقة انني احببتك حبا جما ملك علي مشاعري .. وهي المرة الاولى في حياتي التي يخالجني بها هذا الاحساس العذب . لقد حاولت ان اغالب عواطفي ، واكبر من حدتها لاتحرر من هذا المرض .. بيد انك اقوى مني .. لقد سحرتيني بجمالك الوديع ، وسيطرت على بهذه البراءة التي ترمض في ملامحك .. حتى استحلت الى شخصية غريبة عن طبيعتي .. وانا الذي يستحق الرحمة لا انت .

هي : قرات في الكتب ان نتيجة الحب المتبادل الزواج .

هو : كم اتمنى هذا الزواج لولا ..

هي : لولا ماذا ؟

هو : ارجوك ان تنصرفي عني .

هي : ساظل متشبثة بك حتى اخر رمق في حياتي .

هو : الا تخشين أن اخدعك ؟

هي : كلا .

هو : ولماذا هذه الثقة ؟

هي : ضميرك يمنعك من هذا .

هو : انت غرة ... لا يوجد شيء اسمه ضمير ..

هي : الضمير هو اشرف حاسة عند الانسان ، وهو الذي يردعه عن الشرور والاثام ، ولولاه لساد الظلام جميع مرافق الحياة . انه نعمة من الله بها على عباده ليقوموا بعمل الخير والحق .

هو : الضمير واحة يتفياها الضعفاء ليبرروا اخفاقهم ومسكنتهم .

هي : لا افهم في هذه المناقشة .. ارجوك .. ترفق بي .. خذني اليك .. ضمني الى صدرك .. انهارت مقاومتي .. احس بروحي تذوب شوقا الى ذراعيك الباهرتين. يا احب الناس الى قلبي .

هو : اتعرفين من انا ؟

هي : لا يهمني ان اعرف من انت ؟

هو : اسمعي على الاقل ..

هي : انتقي الاسماء على قلبي .

هو : لو عرفت من انا لكرهتيني.

هي : وهل يكره الانسان حبه ؟

هو : لا بد .. لاول مرة في حياتي احاول ان ابتعد عن الخداع .. واحسرتاه .. انني استحق الرحمة. دعيني اتمرغ على قدميك .. ارجوك ان تشفقي علي .. انا بائس محطم ، ولاول مرة في حياتي اشعر بتعسي .

هي : ولماذا هذه التعاسة ؟ ان شبابك الذي يتوجك بهذا الجمال .. يفوق تيجان ملوك الارض مجتمعة .. انت اسعد انسان في العالم لانك تملك الشباب والجمال .

هو : ليتني كنت انسانا يعرف الخطيئة ، وينشد الغفران .

هي : انت اسمى انسان .

هو : واحسرتاه ... بي ظما شديد لان اكون انسانا .. ولكنني.. (يسكت ، وتغيم نظراته في الافق).

هي : اضحك يا احب الناس الى قلبي .. لا احب وجهك المتجهم .. اسمعني رنين ضحكتك الصافية .. انني تعزف على اوتار قلبي اعذب انشودة .

هو : ساقول لك شيئا .. هل انت مصغية ؟

هي : نعم .

هو : خرجت في هذا الصباح ، وفي نيتي ان اقود فتاة بريئة الى الاثم .. لتتكاثر الخطيئة في الارض. ولما رايتك في هذا الجمال الشاده وجدت فيك ضالتي ، وصوبت اليك نظراتي بعد ان تنكرت بزي اجمل وارشق فتى ، وانهارت مقاومتك

بسرعة .. وكنت اود ان اسلمك فريسة لاول عابر سبيل .. ولكن قلبي الميت تحرك ، وفاض بي حنين عجيب .. وانتصرت علي البراءة التي تنصع على محياك العذب .. وهزمت جيوش الشر التي زمجرت في ضلوعي .. واحببتك حبا ملك علي مشاعري ... عندي كنوز الدنيا .. انا اقوى من جميع حكام الارض مجتمعين .. نفخة مني تطيح بهم.. ومع هذا انا اشد الناس عذابا وبؤسا.

هي : كلام غريب .

هو : لا استطيع الا ان اكون صادقا معك .. الحب لا يعرف المخادعة .. فهو اسمى عنصر خلقه الله في هذه الارض .. هل تعرفين من أنا ؟

هي : لا ..

هو : انا الشيطان .

هي : الشيطان ! ..

هو : ابليس بذاته .. ما رايك ؟

هي : مزحة ثقيلة ..

هو : انها الحقيقة ..

هي : يستحيل ..

هو : الم تعجبي من نفسك .. وانت الطاهرة المعتصمة وراء اسوار الفضيلة كيف انقدت الي دون تفكير .. كلمة مني سلبت ارادتك ، وعطلت مشاعرك .. حدث هذا لانني اردته .. الا تفهمين موقفك الشائك الان ؟.

هي : ابليس .

هو : ابليس نفسه ..

هي : رب .. ارحمني .

هو : لقد رحمك الله ايتها العذراء الطاهرة .

هي : اريد ان أصلي .

هو : ارجوك .. لا تفعلي الان .. ان الصلاة النابعة من القلب الطاهر تسحقني .

هي : واحسرتاه على نفسي .

هو : لا تتحسري .. هي دقائق قليلة ، وتذهبين الى بيتك موفورة الكرامة ، ناصعة الجبين ، اشد ما تكونين عفة وطهارة .

هي : كيف يستطيع ابليس ان يتخذ هذا الشكل الجميل الساحر؟ ان ابليس عندنا مثال الدمامة والشناعة .

هو : لانهم لم يعرفوه على حقيقته.

هي : وما حقيقته ؟

هو : الالم الذي تحمله منذ بدء الخليقة .. والعذاب الذي يسكبه سكبا على عباد الله .

هي : وما لذتك في تعذيب عباد الله ؟

هو : اجد لذة فائقة في هذا العذاب الذي اصبه عليهم .. ولكنني منذ هذه اللحظة اصبحت اعطف عليهم . لقد طهرت نفسي يا ارق عذراء في هذه الدنيا .

هي : انني خائفة .

هو : لا تخافي .

هي : احس بقشعريرة تتمشى في جسدي .

هو : ولماذا هذه القشعريرة ..

هي : لانني امام الشيطان وجها لوجه .

هو : ارايت كيف تعيشون على الوهم ؟

هي : وهل هنالك ادهى من الشيطان ، واعظم بلية ؟

هو : الانسان .

هي : الانسان مزيج من الخير والشر :. اما انت فالشر المطلق ..

هو : بالعكس .. انا مثال الحب الكامل ..

هي : ابليس مثال الحب الكامل.. هذه اول مرة اسمع فيها هذا الكلام.

هو : هل سمعت بواحد اسمه الحلاج ؟

هي : لا .

هو : انه من اكبر المحبين الذين تدلهوا بالله .. في قلبه نيران الحب الالهي الذي لا يخبو ويتجدد في كل لحظة .. لقد عشق الله عشقا صادقا عميقا لا خوفا من ناره ، ولا رغبة في جنته .. احبه للحب ذاته وسما في حبه الى السماء .. ومع هذا قتلوه.

هي : قتلوه ..

هو : كفروه وقتلوه لانهم لم يفهموه .

هي : ليرحمه الله .

هو : لقد فهمني الحلاج وادرك كنهي ، وعلم انني الحب المطلق ، واتخذني في « الطواسين » مثالا لحب الله .. لقد امرني الله ان اسجد لآدم .. فاستنكفت .. لان حبي لله يحول بيني وبين السجود لمخلوق مهما سمت مكانته .. ومهما ترتب على ذلك من عذاب.. فاهبطت من السماء اتلقى اللعنات من الناس.. وعندما يخطئون لا يجدون غيري يلعنونه ..

هي : ماذا افعل يا الهي ؟

هو : بعد ان عرفت مثاليتي في الحب .. ارجو ان تشفقي علي ..

هي : اذا كنت ابليس.. اغرب عن وجهي ، والا صليت لربي لطردك ..

هو : ارايت انني طيب الى ابعد حد؟ لقد بذرت في قلبك كراهيتي..

هي : انا عائدة الى البيت .

هو : انت اقوى مني .. ولا استطيع ان اوجج الشر في قلبك.. جمالك نفحة من الله ..

هي : لعنة الله على الشيطان .

هو : وانت ايضا تلعنينني .. رغم انني كشفت لك حقيقتي ..

هي : انني اكرهك .

هو : لا .. كفاني كراهية ..

هي : واتمنى لك الهلاك لترتاح البشرية منك .

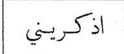
هو : ظمأي شديد الى السماء .. ولكنها مغلقة الابواب في وجهي ..

هي : لو كنت تحب ربك كما تدعي لاطعته .. فطاعة الحبيب واجبة .

هو : انك لم تفهميني حتى الان.. وداعا يا احب الناس لدي .. فقد جعلتيني اعيش في لحظات مشرقة كلها صفاء وطهر ليتها تتكرر .. وهل تنفع شيئا ليت ؟

هي (تتطلع اليه .. واذا بسحابة من الدخان تتطاير في الهواء) شكرا يا رب لانك انقذتني من الشيطان .

طرطوس محمد حاج حسين



اذكريني

ارسل الشاعر هذه القصيدة من منفاه بالجابون الى قرينته بالمغرب ، وفيها تصوير اشاهد في مدينة « فاس » المغربية بدأت بالاسف تمحي وهي من مطويات الشاعر في انتظار طبعها في ديوان .

•

عـلال الفـاسي

وزير الدولة المكلف بالشؤون الاسلامية
وزعيم حزب الاستقلال

•

الرباط ـ المغرب

•

اذكريني ان بدا الصبح ولاح
وتجلت شمسه بين البطاح
وتولى الليل مقصوص الجناح
ونسيم الروض بالنسرين فاح
اذكريني

اذكريني تحت سقف الياسمين
حيث تغدين لديها تلعبين
تنظمين الزهر كالعقد الثمين
يتحلى الجيد منه والجبين
اذكريني

واذا البلبل في الاصباح غنى
بنشيد يبرىء القلب المعنى
راكبا في شدوه فنا ففنا
مرحا في الروض مسرورا مهنا
اذكريني

في ظلال الروض ما بين الغصون
بين افنان لديه وفنون
حيث شمل الانس مجموع الشؤون
والهوى ينطق بالسر المصون
اذكريني

والاباريق على الجمر تفور
كفؤاد الصب يذكيه الشعور
صائمات سحبا ليست تمور
وكؤوس الشاي بالانس تدور
اذكريني

اذكريني يا حياتي في المقيل
حيث تصغين الى ماء الشليل
والنواعير بشدو وعويل
كنشيج الصب في وقت الرحيل
اذكريني

وخرير الماء يجري في السواقي
سلسلته الشمس بالتبر المراق
فتبدي في المحاني والمراقي
مثل أيم او كسيف او تراقي
اذكريني

واذا ما « خصة » الروض علت
مثل شمطاء به قد اسدلت
شعرها الابيض لما رقصت
وتلوت في العلا وانطلقت
اذكريني

في ظلال وارفات للدوالي
والعناقيد من السقف دوالي
حيث تبدو الشمس من بين الخلال
كنجوم الافق في بيض الليالي
اذكريني

اذكريني حينما تدنو العشية
فوق سطح الدار تمسين هنية
والخليلات يؤدين التحية
كل حسناء الى النفس شهيه
اذكريني

حينما « زالغ » يبدو في بهاه
كبساط كمليك قد كساه
سندسا اخضر يسبي من رآه
بث فيه النور اصناف حلاه
اذكريني

واذا شمس العشايا في البساتين
أخذت تقرب من عالي الرياحين
في المصلى فوق ادواح الزياتين
وقباب الغر أبطال الميادين
اذكريني

حيث تلقين محابيس الغروس
بهيات مثل أطباق العروس
كل نور مالك حب النفوس
نفحة المسك وفعل الخندريس
اذكريني

واذا البدر تبدى في سناه
مشرقا يضفيك اطراف رداه
ونجوم الافق تصطف حذاه
كمليك يبهر الجند علاه
اذكريني

اذكريني ان دجا الليل البهيم
ومضى كل خليل ونديم
ليس الا الصب في الروض يهيم
يرقب البدر ويلتذ النسيم
اذكريني

حين تبقين وأبقى في انفراد
ليس من حب ولا خل وداد
غير « ليلى » فهي أنس ومعاد
تنشدين الروح منها والمراد
اذكريني

حين تحنين عليها في الوساد
وتغنيها أغاريد الرقاد
غرة لم تدر أسرار البعاد
تأخذ النوح وتحبوك السهاد
اذكريني

واذا اوليتها الحضن الامين
وغدا الجيد عليها واليمين
مثل زهراء على الريم ضنين
لوت الجيد عليه في القطين
اذكريني

اذكري صبا حليفا للسهاد
شفه الوجد وأضناه البعاد
تائه الفكر ومسلوب الفؤاد
شاقه منك ادكار مستعاد
اذكريني

فاذا اغرقت في ذكرى طروب
وتمليت بوجدي ونسيبي
وبآمال محب لحبيب
ودنا النوم شهيا فاحلمي بي
واذكريني

« خصة » نافورة تقام في عرصات البيوتات المغربية الكبيرة وفي حدائقها . « زالغ » جبل بضواحي مدينة فاس . . « ليلى » كريمة الشاعر . .



سعد صائب

اميليو بالاغاس .. شاعر من كوبا

بقلم سعد صائب

* * *

ثمة سؤال ما انفك يراود اذهان الباحثين (١) ، وما برحوا يطرحونه على انفسهم يبتغون له جوابا شافيا .. ترى .. الى اي مدى يمكن ان يتحقق الاحتكاك بين ثقافة امة وامة ؟ وما هو الطمع الذي يقصد من وراء هذا الاحتكاك ؟.. ولقد اجمعوا على ضرورة الاخذ به مهما كان شأو الامة في ثقافتها قديمة او معاصرة ، ومهما بلغت الامة من سمو ورفعة ومن ابداع واصالة .. بيد انهم اجمعوا في الوقت ذاته على ضرورة الحذر مما ينجم من التمادي فيه على عواهنه ، واوجبوا تقريه وتحري مضمونه ؛ فان احست الامة بخطره عليها ، وشعرت بانه قد يفقدها جوهرها ، او ينسيها طابعها ، أو يقتل فيها اصالتها تجنبته وابتعدت عنه .. وليس من شك في ان لكل امة سماتها وخصائصها ، ولكل امة ذاتيتها وطبيعتها وقدرتها على الابداع والخلق ، وتجاربها التي تمسي قطعة من نفسها ، يشرق بها وجدانها ، وتبرز شخصيتها : وانها بقدر حفاظها على هذا الجوهر ، وبقدر حرصها على نقاء تلك الطبيعة ، وبقدر سعيها الحثيث الى بروز تلك الشخصية : يكون بقاؤها ، وحماية نفسها وصقلها وتوجيهها ، لاظهار الميزات التي اختصت بها . ولاجناح عليها بعد ذلك ان تطلعت الى ما لدى الامم من ذخائر ، وما فيها من ابداع يعكس تجربة لم تعتدها ، ويحدث اثرا جديدا لم تالفه ، ويكشف حجبا خفيت عليها ، لانها تتيح لذاتها بهذا التطلع الواعي اليقظ ، موقفا ملائما وموحدا لبلوغ هدفها الذي ترنو اليه : وترتاح له وتسمو به ..

مستمعي الكرام : لم ارم من حديثي الساعة ، الى الاحتكاك ذاته ، ولكني اردت ان اشير اليه اشارة عابرة لاهميته بالنسبة الينا ونحن في مرحلة انتقال ، وفي مستهل تفتح ونمو ، ولوثوق حلته بما انا ماض في بحثه ومن ثم لادعكم تويي الصلة بالجو النفسي الذي يتيحه احتكاك صحيح سليم مفيد ، يكسب شعور الامة الوجداني عمقا ، فتحس بأثره وتدرك قيمته ..

ولقد اعتدت إن اقرأ ما يقع في يدي من اثار ادبية لامم غريبة عنا ، فاستمتع بما اقرا ، وكنت حريصا اشد الحرص على نقل بعضه الى لغتنا ، يقينا مني بانه يردد لمشاعرنا واحاسيسنا اصداء جميلة خافية علينا ، ويحدث فينا تجاوبا يوثق محبتنا بجمال هذه الاثار ، وينمي خبرتنا بها ، وبالتالي يوحي الينا بمعان واخيلة وصور ترتاح اليها نفوسنا ؛ ويعذب وقعها في قلوبنا .. ولقد تفضلت اذاعتنا مشكورة فخصتني بحديث في كل شهر ، اتناول فيه شاعرا من شعراء العالم المعاصرين ، ادرسه واياكم فنتعرف عليه من خلال شعره ، وننفذ الى صميم تجربته الشعرية ان استطعنا الى ذلك سبيلا ..

وساحدثكم الليلة عن الشاعر الكوبي « اميليو بالاغاس » .. وكوبا دولة من دول اميركا الجنوبية ، تصنع اليوم مستقبلها بل معجزتها ، وتدبر امرها بنفسها ، وتبني كيانها بارادتها وتحيا مواقفها القومية ، بل تحيا القلق والفرح معا .. القلق المستيقظ ، والفرح المستيقظ اللذين يؤديان الى بناء مستقبل افضل ..

مستمعي الكرام : قد يكون الشعر الكوبي جديدا في الشعر العالمي ، وربما ظهرت بوادره قبل حرب الاستقلال عام ١٨٩٨ التي سجلت اندحار اسبانيا واكدت استقلال كوبا ، وليس بدعا ان تشحذ هذه الحرب المظفرة تجارب الشعراء الكوبيين الرواد ، وان يسهموا في قيم الحياة الجديدة ، فاستطاعوا تسجيل الاحساس الوطني الحاد الذي يحياه شعبهم ، كما استطاعوا اكتشاف ذواتهم ومضوا يغنون في تعابير صادقة ، وتجارب حية لم يتعدوا فيها مذاهب الشعر من ذاتية غنائية الى كلاسيكية موضوعية ، الى واقعية لا تتجاوز تصوير الحياة

---

(١) حديث اذيع من محطة اذاعة دمشق . (٢) راجع : « نصف قرن من الشعر » بالفرنسية من منشورات « اليونسكو » . (٣) الاقنثوس Acanthe نبات شوكي معمر مزهر ذو اوراق عريضة له رائحة لطيفة ، ينمو في الاراضي الرطبة .

وتلوينها ؛ الى غير ذلك مما لم يخل منبا شعر منذ ان اتهم الانسان قول الشعر .. ولقد يبدو لاول وهلة ان الشعر الكوبي يتاثر الشعر الاسباني ويسير على نهجه ، بيد ان من يسبر غوره ، يجد ان له طابعه المميز ، وله شخصيته النامية ، لانه ـ في الواقع ـ منبثق من صميم الروح الكوبية ذاتها ، مرتكز على اسس قويمة ، ودعائم ثابتة من التجربة الوطنية والقومية من نحو ، ومن تجارب الشعراء الذاتية من نحو اخر . وحسبه انه بدأ يفرض اليوم وجوده على النتاج الشعري في العالم ، واستطاع اغلب الشعراء الكوبيين ان يبلغوا بشعرهم الكمال الفني ، وان يعربوا عن احاسيس جديدة تواكب الاحاسيس القومية والانسانية التي تحياها كوبا اليوم .. وما من شك في انهم امسوا طرازا اخر من الشعراء ممن يتكلمون الاسبانية ، تستهويهم نفوسهم فيصورون ما فيها من خلجات ، ويمتزجون بوجودهم فيثير لديهم اهتزازات تنبعث بها نفوسهم الحزينة التي يغمرها بالرغم من حزنها شوق ويهدهدها حنين ..

ولد الشاعر الكوبي « اميليو بالاغاس » في مدينة « كاماغواي » وتوفي عام ١٩٥٤ في هافانا عاصمة كوبا . ولقد عده الشاعر الاسباني الكبير «خوان رامون خيمينيز» الحائز على جائزة نوبل عام ١٩٥٦ من اكبر شعراء كوبا ؛ ومن ابرزهم في قول الشعر ، حتى ليجيء في قرن مع شعرائها الثلاثة الكبار : « فلوري » و « نيك » و « نقولا غويلين » . وقد عرف عن الشاعر بالاغاس انه استاذ ، رحالة ، جال في ارض اميركا واوروبا ، كما عرف ببراعة تاليفه لضرب من « المحاولات الادبية » وبترجماته الامينة لبعض آثار ادبية انكليزية وفرنسية ، اذ نقل الى لغته آثار « سوبرفييل » و « بول ايلوار » كما الف منتجات شعرية هامة لشعراء زنوج ، استقطب فيها اصفى قدرته المبدعة ليظهر النفس الزنجية على حقيقتها ، مما اضطره الى ان يضفي على الافكار التي عالجها لهجة شخصية مغرقة ، وان يمزج الفرح الحسي بالالوان والدقة اللذيذة في نفسية « الافريقي الكوبي » بالرغبة الملحة الدائمة في تجديد الشكل والمضمون معا في الشعر الكوبي . وتلك خاصية تفرد بها وحده بوأته ليغدو شاعر طليعة .. وثمة ظاهرة بارزة في شعر « بالاغاس » تتجلى في خوف مفاجىء مركز في قصائد عارية لا نهاية لتاثيرها . بيد انه خوف خال من كل ما ليس بشعر .. انه بالتالي ضرب من الرومانتيكية، بقدر ما يوحيه حنين لا حد له يتولى الشاعر ، ولكم من بروق تعبر هذا الخوف يتاجج فيها ايمان ساذج في فروسية ناعمة .. ومن مميزاته ايضا ان شعره جم التنوع ؛ مطبوع دوما باحساس الانسان الذي عانى تجربة العزلة ، بل عاشها بعمق ، لا بفكره فحسب ، بل وبجسده المهتاج كذلك . وليس من شك في ان هذا الاحساس عذب ، جميل ، عميق ، يتفاعل معه ويعبق بطيبه ، لا تحده التراكيب الذهنية التي اختص بها اغلب شعراء الغرب ؛ استوحاه من عالم ركب من احاسيس طبيعية عميقة صادقة يظهر نقاؤها بجلاء ان هي تورنت بغيرها من الاحاسيس .. ولقد اصدر الشاعر « بالاغاس » العديد من الاثار منقولة وموضوعة ومنظومة ومن اهم ما نظم : « دفتر شعر زنجي » و « رثاء بلا اسم » و «دجنة ورثاء» و « طعم ابدي » و « عذراء البحر » و « سماء في رهائن » الى غير ذلك مما زخر به وجدانه من تأجج عاطفة. وغنى معنوي ، وبعد عن التصنع ، ووضوح شخصية . واليكم مقتطفات من قصيدة له طويلة بعنوان :

دجنة Nocturne

ان دعتني قائلة لي : ارسم فوق الثرى
صليبا من الصمت والرماد
فوق الاسم الدنس الذي ينوء به كاهلي .
ان دعتني فقل لها : لقد طواني الردى
واني اتن تحت النمل .
قل لها اني فنن برتقالة
دوارة هواء البرج
لا تقل لها قط اني ما برحت اذرف العبرات
واني اداعب فراغ غيابها
اذ يقف شكل الجسد الاعمى
في لهف مترقبا مآبها .
الا ان الجسد شجرة غاب ، تغني وتئن
وها انذا الساعة انتظر عبثا تحت ظلها
بعد ان فات الاوان وكاني سمكة خرساء .

* * *

ان دعتني فاعطها هاتين العينين
اعطها هذه الكلمات الرمادية ، هذه الانامل
اعطها قطرة الدم في المنديل .
قل لها انى اضعت نفسي
واني طائر مبهم ، حلقة مزيفة
على شاطىء فوق قصب منسي .
قل لها اني اغدو واروح بين الزعفران والزنبق
قل لها اني اردت ان احتفظ بشفتيها
ان اسكن جبينها
وابحر ذات مساء في طيات شعرها
فاتعلم لون هدبها
وتهدا نفسي في تمهل فوق قلبها
فاغفو ليلة واحدة
في اعمق ضجة عروقها الخرساء ..
ان الجسد الذي البسته حناني
يتمنع على عيني منذ الساعة
ولست الاصدقة حمراء كلون الزهر
وها انذا جامد ، محطم ، وحيد

ولئن خامرك شك في حالي ، فصد في الريح
ارسلي طرفك صوب الشمال ، وسائلي السماء
فستجيبك كلها أن كنت ارجو
ام اني اغرق نفسي في سجف الظلام .

* * *

آه ! ان دعتني فقل لها ما تعلمه
وسيتحدث عني شجر الزيتون ذات يوم
اما غدوت عين القمر
فذا في جبين الليل
متنبئاً بأصداف الرمل
متنبئاً ببلبل نجمة
بحب الغدران الساحرة .
اني حزين ، وما اقوله صحيح
بيد اني بذرت ابتسامة في الصعتر
وخبأت ابتسامة ثانية في زحل
واضعت واحدة لا ادري اين
ويحسن بها ان تترقب حتى منتصف الليل
عطر الياسمين الضائع
والسهرات المقرورة تحت السقوف .
حذار ان تذكرني بدمها المراق
فلكي انهش قلبها ذا النسيم والضباب
عثرت على دود وشوك
ولم اك قط الغول الذي يبصق في الماء ،
لا ولا ذاك العاشق المتيم ناثر المال
ولن اتردد الى هذه الدار
التي يسودها العلق .

* * *

انا شجرة ، انا راس ابرة
انا اعلى ايماءة فارس معتدلة
انا خطاف في التجربة
انا التحليق الواهي لبومة ، انا رعب سنجاب
انا كل هذا ، بيد اني لست مما تخطه
أنملة قذرة فوق جدر المواخير والمدافن .
انا كل هذا ، بيد اني لست ممن يختبىء
تحت جفاف تناع من قش .
انا كل هذا ، بيد اني لست الجند
الذي يهب ذاته كحلقات حية مقتلعة ،
حلقات رسمت خطا حلزونيا ازجا مستأنيا .
انا كما ابدعتني وحددت مصيري
كيما اواري الي في طيات الضباب .
ان دعتني فقل لها : اني اسكن
ورقة الاقنتوس (٣) والاكاسيا
قل لها أن شئت ، اني مت .
هبها زفراتي ومنديلي
هبها شجي في صفحة المرآة
اتراهم سيذرفون على العبرات في شجرة الغار ؟
ام ان ذكراي سترصد ، كما ترصد نجمة في السماء . .

دمشق — سعد صائب

كأس

عصفورتي ...
مد صفق الجفنان يسخران بالزمان
ليالاني .. ايما انتظار
اطل عمري في رواقه الحزين
وجئت للسنين والفصول
أسح في بوارها الشجون
لان تاريخي زرعته بارض تيه
حيث الرجاء مد لي نداءه الوثير
وكم هنا ؟ !
بقيت يا عصفورتي الوب
كالقمر الاعمى تدوسه الغيوم
تقتابه النجوم ...
لا تسأليني : أي يوم قلت لي
اني انا ...
لانني لا اعرف البقاء في الساعات والثواني
ولم أعتق خمرة الضياع في دنان
لا اكتم الرياح انني ممزق القلوع
في رحلة دليلها الضباب ..
اسائل الزمان والمكان عن
مرافىء الرجال في عيون ...

تراك تذكرين ؟
حكاية الصياد يوم خاب
وحينما لم يلق في التلال وعلته
اختار للاياب
ثلاثة من البجع
جراحها تبوح للوداع
اني انا الوفاء
ليتك تعرفين
هذا النشيد الاسود الولوع
تلك الدموع الصفر في الظنون .. انها
حكاية الوفاء .. انها
معناي في غيبوبة اللقاء
اطالع الرجاء بالسنين ...
يوم احتست عيناك مني لثغة الغناء
ليتك تذكرين
لكنت لي فوق الامل
لصفق الجفنان يحملان للزمان
اني انا الوفاء ....

حلب — حامد حمدي

اغنية للمطر

القصيدة الاولى

●

ذرذر على شفتي الندى ...
ذاب الظلام ...
يا فجر رطب مقلتي !
سكن التراب ...
ونشقت في النسمات ريحا من مطر !
واد بعيد ...
قد بلت الارواح فيه وغسلت سدف الزهور



تاق الفؤاد ...
ورفعت وجهي ... لو يبلله المطر !

سرب الغمام
شف رهيف ...
كغلالة من زنبق بض السدوف !
لا ليس يمطر بل يثير بي الحنين ...
ورفعت وجهي ... لو يبلله المطر !
لو بل قلبي لو تغلغل في دمي
لو ذبت فيه ...
لو عانقت روحي انامله الحنون
. . . .
. . . .
روح السلام ....
رفت على قلبي بريحك يا مطر !

القاهرة — ملك عبد العزيز

القوم يقرأون ...

بقلم مبارك ابراهيم

* * *

« القوم يقراون » مقالة موضوعاتها تقوم على ملخصات موجزة ومقتبسات من كتب منوعة ، ففيها الجد الذي لا يثقل على ذهن القارىء وفيها الموضوعات الخفيفة المستساغة ، وكلها تحفز على الاستزادة من البحث والاستكثار من الدرس . وهي على غرار ما ظللت اكتبه في مجلة « الثقافة » ـ طيب الله عهدها ـ عددا من السنين : وانني لارجو ان تحظى من قراء « الاديب » بالرضا ، وهو ما احرصه عليه الحرص كله . [م.ا.]

الاناقة في الاسلوب

انه الاستثناء لا القاعدة ان تجد شيئا من الاصالة في الفكر ادى الى كشف جديد يبعث على التفكير او يعمل على تقدم المرونة لدى الكتاب الذين اشتهروا ببراعة الاسلوب ..

ان الموضوعات التي تتناولها اقلام اولئك السادة هي ـ في الاغلب الاعم ـ موضوعات مألوفة عادية . لا تمثل الا التجارب اليومية التي تمر بخواطر الناس مرورا عابرا ..

وتدليلا على صحة هذا الراي نجيء بعبارتين مقتطفتين مما كتب « اديسون » و « سترن » وهما من اشهر كتاب النثر من الانجليز على ان نترجم لكل منهما اولا ترجمة موجزة ..

جوزيف اديسون (١٦٧٢ـ١٧١٩) تعلم في اكسفورد. وتميز بانه من الادباء الكلاسيكيين . ولفت اليه الانظار بقصائده اللاتينية .. وعقد اواصر الصحبة بينه وبين كبار ادباء جيله : « سويفت » و « ستيل » وغيرهما . وشارك في تحرير مجلة السبكتاتور ومجلة الجارديان ..

ودفن في كنيسة وستمنستر .. ورثاه رثاء بليغا الكاتب « توماس تيكيل » (١٦٨٦ـ١٧٤٠) . وقد كان اديسون يتولاه بالرعاية ..

لورنس سترن (١٧١٣ـ١٧٦٨) تعلم في كامبردج . وكان يتلقى منحة من الجامعة اثناء تعليمه . وعين بعد تخرجه عام ١٧٣٨ قسيسا . وبدا تاليف رواية «ترسترام شاندي» عام ١٧٥٩ . وقد استنكر الادباء دكتور جونسون وريتشاردسون وهوراس واليول وجولدسمث وغيرهم ما جاء بتلك الرواية من الناحيتين الخلقية والادبية ..

وحكم عليه بالانفصال الدائم بينه وبين امرأته .. وفارق هو ـ على مضض ـ ابنته منها . ومات بالسل .. وعاشت زوجته وابنته من بعده على مال كان يجمعه لهما صديقاه هول ستيفنسون ومستر دربر .

ورواية « ترسترام شاندي » قوامها مذكرات ساخرة، غير متجانسة . وهي تذكر القارىء تارة بالكاتب « سرفانتس » وطورا بالكاتب « رابلييه » وحينا بالكاتب « سويفت » . وان كان العارفون يقولون انها ـ في موضوعها ـ نسيج وحدها .

وبعد، فقد قال«اديسون» متحدثا عن القبور وسكان القبور في كنيسة وستمنستر: عندما اتطلع الى قبور العظماء يزول من نفسي ، وينمحي كل اثر من اثار الحسد .. وعندما اقرا القبريات على قبور الحسناوات تنعدم في اعمق نفسي اثار كل شهوة جامحة .. وكلما اشهد حزن الاهل وهم واقفون على ضريح من اضرحة موتاهم يذوب قلبي اسى وحزنا .. وعندما ارى قبور الاهل انفسهم افكر مليا في عدم جدوى الحزن على اولئك الراحلين الذين سنمضي على اثارهم قدما .. وعندما انظر الى الملوك الذين يرقدون الى جانب اولئك الذين إزاحوهم عن ملكهم .. وعندما اتدبر امر ارباب الذكاء المتنافسين وقد قرب الموت بين مضاجعهم تحت الثرى .. وعندما افكر في امر الرجال الاتقياء الذين شطروا العالم شطرين بخلافاتهم ومنازعاتهم .. عندما افكر في كل هذه الامور يتملكني الحزن والدهش على ما يقوم بين الناس من خلافات وانقسامات والوان من الجدال حول مشاكل كلها ضئيل . وتافه . . وحقير ..

وقال « سترن » في كتابه « حياة واراء ترسترام شاندي » :

سوف لا اجادل في القضية .. فالوقت يمر مرا سريعا جدا .. وكل حرف يخطه قلمي ينبئني عن السرعة التي تتعقب بها الحياة اثار ذلك القلم ..

وايام الحياة وساعاتها هي اغلى قيمة يا عزيزتي «جني» من عقود الياقوت التي تطوق جيدك . فتلك الايام والساعات تمر فوق رؤسنا مر السحاب العابر في يوم اشتدت به الريح .. وهي لن تعود ابدا .. وفي اللحظة التي تقصين فيها احدى ضفائر شعرك . يمر كل شيء في سرعة بالغة .. واذا نظرت في تلك اللحظة الى شعرك الاثيث الفاحم الفيه يدب فيه المشيب .. وكل مرة اقبل فيها يدك قبلة التوديع . وكل فترة من فترات البعاد تعقب تلك القبلة انما هي مقدمات لبعاد ابدي سوف يكون لزاما علينا ان نقاسي مرارته ..

المراهقون يقرءون للترويح عن النفس

« المغامرة » كلمة تتسع لمعان كثيرة .. ومن مدلولاتها القصص التي تقص وتحكى سواء اكانت من واقع الحقيقة او من وحي الخيال . وهي كلمة اذا ذكرت اخطرت بالبال الرجال الذين واجهوا الاخطار والاهوال . ثم عاشوا ليقصوا قصة تجاربهم .. من اولئك الرجال بعض العلماء الذين عنوا بالتاريخ الطبيعي . واولئك الذين جابوا اقطار الدنيا

جميعا ليدرسوا او ليصطادوا الحيوانات الآبدة .. ومنهم الغواصون وخبراء الغواصات الذين تحدوا ضغط افواه المحيط لينقذوا رفاقا لهم وقعوا في المهالك او لينتشلوا الذهب الذي غاص في الماء .. ومنهم رجال الطيران الجريئون جراة العفاريت من الجن والانس .. ومنهم السحرة (كالساحر هاري هورديني مثلا . وهو ساحر امريكي اسمه الاصلي ارك وليس ١٨٧٤–١٩٢٦) الذين استطاعوا ان يتخلصوا من الاغلال ومن اقمصة المجانين ..

وانت أيها القارىء لا يتولاك الذهول اذا خطر ببالك انك تواجه زوجين من الصلال في غرفة مغلقة تضمك واياهم . او اذا مر بخاطرك انك تطارد أحد النمور المفترسة في احدى الغابات . أو ان تجد نفسك وقد ضممت بين ذراعيك نمرا اسود حديد الناب والمخلب..؟

هذه موضوعات تضمها بعض قصص المغامرات .. وبعض قصص المغامرات الاخرى تضم قصصا عن البحر كقصة ذلك النرويجي الذي صنع رمثا من الارماث من الفلين وجرى به مسافة ٤٣٠٠ ميل فوق امواج المحيط الهادي (وعلى ذكر المحيط الهادي نذكر أن اول من سماه بهذا الاسم هو رجل البحر البرتغالي « ماجلان » ١٤٨٠ – ١٥٢١ وذلك بعدما عاناه من المتاعب عند اجتيازه المضايق المؤدية الى هذا المحيط) .

وهناك غير قصص المغامرات تلك القصص التي تعنى باضحاك الناس ؛ ومنها قصص يكفي لاضحاكك ان تقرأ اسماءها كما يتبين من العناوين الاتية : (١) كل شيء يمكن ان يحدث .. (٢) يكون ارخص لو اشتريت بالدستة .. (٣) حساب امي في البنك .. (٤) نحن قد هززنا شجرة العائلة ..

القصة اقدم الفنون جميعا

ان القصة قديمة قدم اللغة ذاتها . فالرجال الاولون الذين كانوا يلتفون حول النار التي يوقدونها امام مخيماتهم كانوا يتسامرون بان يقصوا على اخوانهم قصة صيدهم اثناء النهار . وقصة مغامراتهم في ارجاء الغابة.. ومن كانت قصته احسن اخوانها طلب اليه ان يقصها مرة بعد مرة ..

ولما تتابع سير الزمان اجتمع للقصاص عديد من القصص تحكي اعمال البطولة . وتفسر اسرار الطبيعة . وتقص تاريخ القبيلة .. وكان القصاص معلم القبيلة وحكيمها . ثم ورث من خلفوا من بعده مجموعة قصصه..

ثم تقدم الزمن . وقامت المدن . واتسعت رقعتها . وتسلط الملوك والامراء . واصبح للقصاص مكان الصدارة في بلاط الملك ..

ولما تعلم الناس كيف يكتبون تاريخهم ويودعونه بطون الكتب كان الذين يعرفون القراءة قلة من الناس . فكانت الكثرة الكاثرة من الناس يولون وجوههم شطر القصاص ليستمدوا منه العلم والتسلية ..

ان القصة تحسن حمل الرسالة اكثر مما يحسنه أي لون اخر من فنون الكتابة .. والرسالة التي تحملها القصة تبقى في الذاكرة .. فرجل الدين الذي يريد ان يجعل لكلامه وزنا . والمعلم الذي يريد ان يشرح لتلاميذه درسا. والاب الحكيم الذي يريد ان يعظ ابناءه كثيرا ما يجدون ان للقصة اثرا فعالا اكثر مما يجدونه لمائة من الاوامر والنواهي ..

وقص الحكايات يجمع الجموع . ويخلق وينمي اواصر الصحة . ويضاعف مقادير السعادة عن طريق المشاركة .. وكلما انصت مستمع الى قصة صالحة خرج ينشرها ويذيعها ليلتذ مرة اخرى وليستمتع بها اخوانه وبنو عشيرته ..

ومن الناس من يولد قصاصا كما ان منهم من يولد موسيقيا او راقصا موهوبا .. ولكن المرء يستطيع ان يتعلم كيف يكون قصاصا .. واولى الخطوات في هذا الطريق هو ان توجد لديه الرغبة ..

القراءة تسدد خطى القارىء

ان القراءة الجيدة حالة من الحالات التي تشبه ان يصبح المرء مدلها في حبه .. او ان يصبح زوجا لامراة كان يشتهيها .. او ان يظفر بامنية كان يتمناها .. فالمرء في كل حالة من هذه الحالات يشم للدنيا رائحة جديدة ..

ويقول بعض العارفين : اذا استحق كتاب ان يقرا فليقرا على مهل . فالكتاب كالبقرة يجب ان تحلب حلبا جيدا .. ويقولون ايضا : لا تحسبن ان الكلمة المطبوعة التي احتواها كتاب يضمه غلاف تكون دائما كلمة من كلمات الحكمة الصادقة .. فهناك عدد لا يحصى من الكتب الرديئة ..

والمرانة في القراءة سوف تعلم القارىء معرفة الفروق .. ثم يقولون : ان القارىء سوف يجد كتبا كثيرة يبدو عليها انها لن تلفت نظره ابد الدهر فعليه ان لا يضيع الوقت في قراءتها .. وعليه ان لا يقرا الا الكتب التي يستسيغها .. وان من الكتب ما لا يجتذب انظار القارىء لاول مرة ولكنه قد يجد في تلك الكتب بعد عام او عامين ما يثير اهتمامه ..

طبيب من اشهر الاطباء العالميين

هو سير وليم اوسلر (١٨٤٩–١٩١٩) كان من كبار الاطباء الكنديين ومن اشهر اساتذة الطب . وقد نالت من مكانته – كعالم وطبيب – واكسبته سوء السمعة كلمة عابرة جاءت في ثنايا خطبة له تقول : ان الرجال الذين جاوزوا الستين من عمرهم هم قليلو النفع والفائدة نسبيا . ولذلك فانه يرى ان ينوموا ويخدروا بالكلوروفورم!

ومن اشهر ما اسهم به هذا الطبيب في العلوم الطبية

مذكراته التي لم تنشر على الناس والتي تدور موضوعاتها حول كيف يموت الناس ؟

وينسب النقاد والمؤرخون لسيرة حياته ان عظمته لا ترجع الى معرفته الواسعة العميقة في علوم الطب وحدها . بل انها ترجع الى امتداد افقه في مختلف انحاء التعليم . فقد كان هذا العالم رجلا مثقفا حقا . وكانت له اهتمامات بما فعله الناس وبما فكروا فيه عبر الاجيال الماضية كلها ..

وقد عرف هو ان الطريق الوحيد لدراسة جنس من الاجناس دراسة مستكملة هو ان يقرأ القارئون ما كتبه اولئك الاقوام ودونوه .. ولكن المشكلة الكبرى عنده كانت اكثر تعقيدا من مثيلاتها لدى الاخرين . فقد كان « اوسلر » طبيبا عاملا . وكان معلما للاطباء . وكان باحثا متخصصا في العلوم الطبية . وكان ليس لديه في ساعات الليل والنهار وقت غير مقسم على تلك الشواغل الثلاثة اذا استثنينا ساعات النوم والاكل والاوقات اللازمة لحاجات الجسم وضروراته .. وفكر هذا العالم وقدر . وسرعان ما وصل الى الحل لهذه المشكلة ـ مشكلة الوقت ـ فقرر ان يقرأ خمس عشرة دقيقة قبل النوم .. فاذا حدد الساعة الحادية عشرة موعدا لنومه قرأ حتى الحادية عشرة والربع .. واذا شغلته ابحاثه فذهب لينام في الثانية بعد منتصف الليل قرأ حتى الساعة الثانية والربع . ولم يخالف « اوسلر » عن هذه القاعدة التي اختطها لنفسه ابدا ..

وتحدث عنه واحد من اصحابه فقال : لقد عرفت من احاديثي معه انه منذ صباه الباكر اعتاد ان يحمل في جيبه كتابا صغيرا كان يقرأ فيه في كل دقيقة لا يجد فيها عملا يعمله . فكان يقرأ وهو في انتظار طعامه . او في انتظار الاوتوبيس او في عيادة الطبيب او عند الحلاق ، او في انتظار مكالمة تلفونية ، او في انتظار رفع الستار في دار من دور التمثيل .. وكان بهذه الطريقة يقرأ عشرين كتابا في السنة ، او الف كتاب في مدى عمره ..

فاذا وجدت الارادة للقراءة وجد صاحبها فترة الخمس عشرة دقيقة مهما تكاثرت الشواغل وتراكمت مهمات الامور ..

كيف تتصفح كتابا من الكتب ؟

ان تصفح كتاب من الكتب يبلور اراء القارىء عن الكتاب وعن مؤلفه وعن موضوعه .. وهذا يعني ان عقل القارىء ينمو ويتسع افقه كلما قرأ كتابا ..

وانت اذا نقدت كتابا (والمقصود بالنقد هو تقييم الاراء الصالحة . وتفنيد الاراء التي تنقصها الصلاحية) فانك تكون قد شاركت في كتابة الكتاب . وفي قراءته . وفي التعرف بوجه عام الى دنيا الكتب .. والقراءة الجيدة تقتضي ان يدون المرء ملاحظاته اثناء القراءة .. وهذا امر لا غنى عنه الا للقارىء الذي اوتي ذاكرة فوتوغرافية تستطيع ان تلتقط اللمحة العابرة .. ولكن الملاحظات التي تدون موجزة والا فانها سوف تستغرق من الصفحات ما تستنفد قراءتها مثل الوقت الذي تستنفده قراءة الكتاب بأكمله .

كلمة لهيلير بللوك

قال الكاتب والشاعر والناقد الانجليزي « هيلير بللوك » (١٨٧٠–١٩٥٣) :

وددت لو ان الناس قالوا بعد موتي : « ان خطيئاته كانت مما تسود له الوجوه .. ولكن كتبه كانت تتلى وتقرأ ... »

القاهرة مبارك ابراهيم

انقاض سهرة

جمعت ملء عينها البحر عبر اللانهايات في شفيف صلاتي
جبل الكنز ... وانفتحت عليه جوع عمري مجنحا بالهبات
احرث النهد .. للتمطي على الآه المدماة ! احرث اللفتات !
واضم الخفي من ارج العبد ينشق فيك عن يقظاتي
واهز السرير في الصمت ... بالحلم رضيعا من مرتمى جناتي !
انا في البعد عقدة للمت من نبرات الباقين ملء شتاتي
آه لو استفيق في اسمك : مجهولي ... فاقصي التراب عن نغماتي !

* * *

نمت ؟ واضيعة القرابين ... فضت عن زوايا عيونها القلقات ! !

حلب علي الزيبق

مت ليبدع دنيا

تناهى افتتانا وقال : « الهة ، كم انت حلوه !
قوامك دعوه
لتمزيق ثوب ، لتفتيت عروه
وانت على شفتي ، مدى العمر ، يا عمر ، غنوه !»
واغمضت عيني دلا اردد : « كم انا حلوه ! »

حبيبي ، انت بقلبي نبع مسره
ورنة كأس ونشوه
فقل بعد مره :
« الهة ، كم انت حلوه ! »

ومرت امامي ، مرت ليال
وكاد يضج بثغري السؤال
أماخوذة انا وهو نسي

حبيبي ، عطري شذي
وقلبي غني
وهذا الفم الحلو باق وفي
تعال

وتمضي الشهور
وتذبل تلو الدهور الدهور
اما انا نقرة نهدي على الثوب فله ؟
وفي فمها الشمس اما رنوت الى الشمس قبله ؟
حبيبي حبيبي ، صدقت ماذا ! اما انا طفله ؟

سوى ان صوتا مدله
يدور
كمن خلف خلف الستور ...
هي الريح ردت الي ، الي غرامي كله
واسمع اصداء غنوه
و « كم انت كم انت حلوه ! »

واخرى التقينا
وشابكت القبلات يدينا
« الهة ، عاد يقول ، الهة ، كم انت حلوه !
قوامك دعوه
لتمزيق ثوب ، لتفتيت عروه
وبين الصباحين هذين فجوه ...
دعيني هنالك احيا
وابدع دنيا » .
وابعد ابعد عني يدي
ومال علي
بنشوه
باني حلوه
ومت ليحيا
ليبدع دنيا .

ويا دمع ، يا دمع صب
انا بعده ما انا ؟
حطام هنا
بقيات حب
ويا تاجر الحرف ، بع واشتر
ولكن ترفع كما مئزري ،
انا مئزري دونه الشمس سعر
انا مرة ، يا حبيبي ، وجعت
نعمت
ولكن بشعر

حبيبي ، ستمضي وشعرك يبقى ،
يغني به المستهام ويشقى
وتسمع طفله ،
وقد رشفتها يدان بغله :
« الهة كم انت حلوه
قوامك دعوه
لتمزيق ثوب ، لتفتيت عروه
وانت على شفتي مدى العمر ، يا عمر ، غنوه ! »

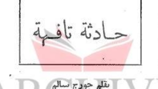
وياخذها تتغيب
بعيد اليه تحدق
وتسكر من قبلة وتصدق
اكاذيب لفقهن الحبيب !

طرابلس — علياء دالاتي

اطال الله عمركم ، ايها القراء الاعزاء ، ومد في اجلكم ، فعلى حياتكم نعلق اكبر الآمال واعرض الاماني . الستم اولئك الذين يجلسون في المقاهي وينشرون امامهم صفحات المجلات والجرائد ويعالجون مشاكل المجتمع والحياة ، فتعلو اصواتكم ويحتدم نقاشكم ؟! انني لاعرفكم جيدا ، فطالما رايتكم في ذهابي وايابي الى الفندق الذي اعمل كاتبا فيه ! ويعلم الله اني احسدكم واغار منكم فانتم تفقهون كل شيء وتعيشون اعمق المشاكل ، كما قال لي واحد منكم وفد على فندقي ذات يوم ، وتعانون اعمق التجارب ، وان مشكلة الحياة والموت تحتل حيزا هاما من تفكيركم الى جانب اهتمامكم بمشاكل الحياة الاخرى كالعدالة والتغذية والفقر والديمقراطية والقومية الى آخر هذه السلسلة من الكلمات التي اتحسر حزنا اني لا اعرف بقية منظومتها . . .

ارايتم ؟! انني لاهتم بكم واتابع نشاطكم ولست افرح لشيء فرحي لحلول بعض منكم في فندقنا المتواضع ، فانا اعرف انكم تزهدون في الابهة والفخامة وتعيشون للفكر ومشاكله وان اسعد اللحظات هي تلك التي اقضيها في غرفكم بعد ان تغادروا الفندق لتؤموا الجامعة ، ومعظم زبائننا من الجامعيين ، واني لاذكر ذلك اليوم الذي دخلت فيه احدى الغرف لاشرف مع الخادم على تنظيفها فوجدت فيها ، واعجباه، تلة من الكتب بين عربية واجنبية ، ولقد تصفحتها فلم ترق لي لانها فوق مداركي ، ولكنني لحظت انها تدور كلها حول الموت ومشكلته مع بعض الكتب التي تبحث فيما يسمى بالعدالة الاجتماعية فعلمت آنذاك ان الموت مشكلة بالنسبة اليكم وانه يحتل حيزا هاما من تفكيركم واصارحكم القول باني لا افهم في هذا الموضوع شيئا ، فانا لم امت، واقاربي واحبائي ما يزالون والحمد لله على قيد الحياة ، وانتم كذلك اطال الله عمركم : احياء فيما اعتقد ما دمت اراكم تقرؤون وتناقشون وتشردون.

اانا احدثكم عن الموت ؟ كلا ، فليس في استطاعتي ان افعل ذلك. ساروي لكم حادثة تافهة حدثت امس في سلم البناية التي يقع فندقنا في الطابق الثاني منها ، ويقيني انكم تعرفون اشباه هذه الحادثة، او هكذا يخيل الي ، ومع ذلك فاي باس في ان نسرد الاشياء التي تؤلمنا ونعيد سردها ؟ ! ولقد قراتم انتم كثيرا عن الموت فلا ضير في ان تستمعوا الي ، دقائق من وقتكم ، فان لم تجدوا فيما سارويه لكم فائدة ومسرة ، فلن تكون خسارتكم كبيرة ، اليس كذلك ؟



بقلم جورج سالم

اسمعوا اذن . . .

في الطابق الاول من البناية التي يقع فيها فندقنا، عيادة طبيب مشهور، عرف بالمهارة والذكاء والقدرة على معالجة الامراض الى جانب معاملته للمرضى معاملة فيها كثير من اللطف والمحبة والتساهل ، ونتج عن هذا ان مدخل سلم البناية مزدحم دائما بالناس، وجلهم من القرويين والغرباء، يفدون في الصباح الباكر ، فيحتلون صالة العيادة حتى اذا لم يبق فيها متسع ، انتشروا امام الباب وملؤوا المدخل ، حتى ليكاد يفيض بهم ، بعض الايام ، ولست اريد ان تأخذوا فكرة خاطئة عن عدد المرضى في بلادنا من خلال حديثي عن هذا الطبيب ، فهو كما قلت لكم مشهور جدا وزبائنه كثيرون ، ولا شك في ان معظم الوافدين على العيادة ليسوا بمرضى وانما جاؤوا يرافقون قريبا لهم مريضا او اخا او صديقا . .



لم يسترع المشهد المالوف انتباهي وانا اصعد درج السلم في الصباح ، كان عدد كبير من المرضى امام العيادة، فصعدت الى الفندق ، على عادتي ، لاقوم بما اعتدت ان اقوم به من عمل، وعند الظهر لحظت ، وانا عائد الى منزلي ان العيادة مقفرة وبابها موصد، وامام الباب كانت تضجع فتاة قروية ترتدي ثيابا حريرية ملونة ، صفراء اللون نحيلة الوجه ترتجف من الحمى، وبالقرب منها كان يجلس شاب قدرت انه زوجها او اخوها. وعندما اقتربت منها فتح باب العيادة فجأة وخرجت منه الممرضة الشابة ، واذ لمحت الشخصين ، انتهرتهما بصوت حاد وهي تقول :

ـ الم اقل لكما ان تذهبا ، لقد انصرف جميع المرضى ، قلت لكما ان الطبيب مسافر . . مسافر الا تفهمان؟

نظر الرجل اليها مذعورا . كان شابا طويل الجسم قوي البنية ، ثم لم يلبث ان خفض بصره وقال بصوت فيه كثير من الخضوع والالم :

ـ سننتظره !

ـ ولكنه لن يعود ، لن يعود اليوم ولا غدا ، لقد سافر الى الخارج .

وبدا ان الرجل لم يصدق ما تقوله ، فلم تبدر منه اية حركة ولا فكر بالذهاب .

عند ذلك اغلقت الممرضة الباب بعنف ومضت مسرعة وكانها يئست من مقدرة هذا الرجل على الفهم ؛ وسمعتها تتمتم ، حين اتجهت الى مدخل البناية :

ـ فليبقيا !!

حين عدت الى الفندق حوالي الساعة الرابعة ، كان باب العيادة مغلقاً كما رايته وقت الظهر ! وكان الرجل قد ذهب بينما بقيت الفتاة

في ضجعتها تلك لم تتحرك عن مكانها خطوة واحدة ، فقلت في نفسي لعله مضى يأتيها بشيء تأكله او شراب تشربه .

والحق ان شيئا غامضا دفعني الى الاهتمام بهذين القرويين الغريبين ورحت افكر فيهما . ولكنني لم البث ان نسيتهما وانا في غمرة عملي ، بين مخابرة في الهاتف ، وتسجيل لاسماء الوافدين وتلبية طلبات الزبائن والايعاز الى خادمي الفندق ببعض الاعمال من ايقاد الحمام الى شراء صابون الى ارسال الغسيل للتنظيف ... وبعد اكثر من ساعة تذكرت القرويين فجأة ، فتركت الفندق لحظة وهبطت الى الطابق الاول لارى ما حل بهما ، فاذا المرأة ممددة في مكانها لم تتحرك ، والرجل غائب ولست اعرف حقيقة المشاعر التي انتابتني آنذاك ، فقد كان في داخلي احساس بحقيقة كنت اخشى ان اتلفظ بها كأن مجرد ذكري للكلمة سيجعل من ذلك الشعور امرا محتما. وهرولت عائدا من حيث اتيت ماذا كان بي ؟! اهو الخوف ؟ ام الاشمئزاز ام الشفقة ؟ ام ...

وناديت الخادم بصوت قاس كأن ذلك يخفف عني ضيقي ، وطلبت اليه ان يستطلع امر الفتاة النائمة على سلم البناية ، فانطلق بسرعة وعاد بعد ثانية واحدة ليقول لي :

ــ ان الفتاة ميتة !

قلت له بوجل :

ــ امتأكد انت من ذلك ؟

ــ لقد شبعت موتا ! والناس المتجمعون حولها كلهم قالوا ذلك .

فقلت له :

ــ واين الرجل ؟ لقد رأيت معها رجلا عند الظهر ؟

قال لي :

ــ ليس معها احد ، وليس من يعرفها او يعرف قريبا لها .

وقلت في نفسي : يظهر ان الرجل قد هرب حين علم انها ماتت .

وتذكرت انني لم اره حين مررت بجانبهما بعد الظهر ــ هل كانت ميتة ام كانت ما تزال تنازع انفاسها آنذاك ؟ لست ادري ، ولكني كنت اريد ان اؤكد لنفسي لسبب لا اعرفه انها لم تكن قد ماتت حين مررت بجانبها ..

وجلست في الفندق لا اعرف ماذا سأفعل .

بعد فترة وجيزة بدأت تعلو تعليقات الزبائن واقتراحاتهم ، وبدأ يظهر تأففهم واستياؤهم . كانوا يقولون لي :

ــ هذا لا يجوز !

ــ هذا يضر بالفندق !

ــ يجب ان ترفعوا الميتة من الارض .. حرام !

ــ استدعوا الشرطة .

ــ استدعوا الاسعاف !!

واسقط في يدي فلم اكن اعرف ماذا ينبغي ان افعل ، وظللت عاجزا عن القيام بأي عمل ، انتظر مجيء صاحب الفندق ، وجاء « المعلم » اخيرا فانتهرني بلهجته العنيفة :

ــ اتصل بالنجدة يا مغفل !

نزعت القفل الصغير عن الهاتف وقدمت له السماعة :

ــ اليك الهاتف ، اتصل بمن تشاء !

تناول السماعة بكل حماسة وكأنه يريد ان يريني قوته وسلطانه امام عجزي وخوفي .

واتصل بشرطة النجدة ... ولم يلبث ان وضع السماعة وقال لي :

ــ لا علاقة للشرطة بالامر ! يجب ان تتصل بأقربائها ليأتوا فيأخذوها.

قلت له :

ــ كان قريبها معها عند الصباح ولكنني لم اره طوال بعد الظهر . يخيل الي انه هرب . واتصل بالاسعاف ، ثم وضع السماعة من جديد وهو يتمتم :

ــ الحقيقة ان هذه الميتة مشكلة ! قال الاسعاف ان لا علاقة له بالميتة ! لقد قالوا لي اتصل بالشرطة ..

وعاد فاتصل بالشرطة .. ووعدوه ان يتصلوا بالاسعاف ، ثم عاد فاتصل بالاسعاف من جديد طالبا اليهم التوسط لدى الشرطة . ومرت فترة كانت اطول فترة شعرت بدقائقها في حياتي .. وكان الناس يتجمعون ويتزاحمون امام باب البناية ، وكان عددهم يربو كثيرا على عدد المرضى الذين اعتدنا ان نراهم متجمعين امام عيادة الطبيب .

وكان « المعلم » يرفع السماعة بشكل آلي بين لحظة واخرى فيدير القرص ويتفوه بكلمة او كلمتين ثم لا يلبث ان يعيد السماعة الى مكانها ليرفعها بعد لحظة من جديد ..

واخيرا رأيته يجلس وقد هده الاعياء والبرم ، وملأ العرق وجهه ويديه فاخرج منديله من جيبه ، ومسح العرق عن جبهته ووجهه واطرق قليلا ثم قال لي :

ــ الحقيقة ان هذه مشكلة !

وحرك يديه دلالة على الاستسلام :

ــ ليس هناك الا حل واحد .

وتطلع في وجهي بكثير من الضيق :

ــ سنحملها نحن الى الشرطة خشية ان تنتن الجثة وتتفسخ ههنا. واشار باصبعه الى اسفل كأن الميتة على بعد خطوة منه .

استدعى الخادمين معا وامرهما ان يحضرا سيارة .ويحملا الميتة الى مخفر الشرطة .. ثم قدم لهما ليرتين وهو يقول :

ــ حاولا ان تستأجرا سيارة بليرة واحدة ، والا فادفعا الليرتين ولننته من هذا المأزق ! قال هذا كله بصوت قاس حاد كي يقطع على الخادمين اي سبيل للتردد او الهرب .

ومضى الخادمان .. فتنفس المعلم الصعداء واخرج منديله وراح يمسح وجهه بهدوء كمن تخلص من عبء ثقيل ينوء به .

ولكن الخادمين عادا بعد عشر دقائق يلهثان :

ــ لقد رفض السائقون ان يحملوا الميتة .

ــ وهل قلتما لهم انها ميتة ايها الحيوانات ؟

ــ لا والله ، كان الجميع يدركون بسرعة انها ميتة فيلوذون بالفرار .

فحملق فيهما غاضبا :

ــ وماذا فعلتما ايها الخائبان !

قال واحد منهم بصوت مخنوق :

ــ لقد قبل احد الناقلين ان ينقلها لقاء خمس وعشرين ليرة ، فانتصب المعلم فجاة كانه نابض آلي وصرخ بأعلى صوته :

ــ مجنون !! وما ذنبي انا لادفعها! هيا ايها الخائبان ! لا بد ان نجد حلا ، هيا اتبعاني . مضى الثلاثة مسرعين، وهرولت الى احدى النوافذ المطلة على الشارع لارى ما يحدث ، ولم يطل بي الانتظار حتى رأيت « المعلم » قد استوقف رجلا كهلا يجر وراءه حماره وراح يساومه .

كان الرجل خبيرا بمثل هذه الامور، فادرك ان الحمل الذي يطلبون اليه نقله غريب ، فطلب منهم ثلاث ليرات اجرة له وهو يقول :

ــ ليس في المدينة غيري لمثل هذا العمل ، والله يفتح علي بين الحين وآخر بمثل هذه الرزقة هاتوا الليرات الثلاث وتوكلوا على الله !

ولكن المعلم كان يصر ان يدفع ليرتين فقط . وقبل الرجل الليرتين اخيرا وتقدم من باب البناية بعد ان قرب الحمار من المدخل وساعده الخادمين على حمل الجثة ووضعها فوق ظهر الحمار . كان راسها وذراعاها في طرف ورجلاها في طرف آخر ، ومضوا جميعا في شبه موكب ، وانا اتابعهم بنظري حتى اختفوا في احد المنعطفات .

عادوا بعد برهة وعلائم الاعياء بادية عليهم جميعا . جلس المعلم ممتقع الوجه ، وطلب الى الخادم ان يقدم قهوة للجميع ثم التفت يقول :

ــ لقد سلمناها للشرطة ، اطال الله عمركم جميعا .

لم يجبه احد بكلمة ، ولم يعلق احد اي تعليق ، كان الجميع مطرقين صامتين ... وبعد فترة مضى كل الى عمله وعادت الامور سيرتها الاولى .

الا ان صورة الفتاة المحملة على ظهر الحمار لم تفارق مخيلتي منذ ذلك الحين .

ما رايكم ايها القراء ، ايها القراء الاعزاء ، ان تتذكروا هذا المشهد وتتخيلوه اما ادرتم في المقهى ، رحى النقاش حول معنى الحياة والموت وكرامه الانسان ؟ أم انكم ترون في هذا كله حادثة تافهة لا قيمة لها ولا تستحق ان تولوها جانبا من اهتماماتكم الجدية ؟؟ ..

حلب　　　　جورج سالم

وداع

وقلت وداعا ...

فانطفأت من عالمي كل شمعة
وفي مقلتي بدت الف دمعة !
ورحت وحيدا .. على شفتي يطوف العدم
وماضي ينصب في ناظري : لهيبا ودم
وفي كبدي النار تغفو والف رؤى مفجعة
فيا لقساوة تلك الرؤى ويا لمرارة هذا الالم !

* * *

تذكرت انا التقينا كاي غريبين في دربنا
وبين زحام الوجوه .. هنالك في ظلمة المنحنى
لقيتك تائهة في الدروب ، مشردة في قفار الدنى
كأغنية في متاه الخريف ، ترنح موالها موهنا
وانا مضينا معا في الطريق ، وقد اوثق الحب ما بيننا

* * *

وتحت ظلال من الصمت خاشعة كالرؤى حانية
جلسنا على ضفة من اماني نرتل اغنية دانية
سنحلم .. حتى يصير الخيال ويمسي الوجود رؤى فانية
سنحلم اما يحين الردى ، يسوق الحصاد الى الهاوية
وانا سنزرع في مهجتينا براعم من حبنا نامية

* * *

.. ومرت سنون
وما كنت ادري بان الخريف وراء السنين
تطل علينا اعاصيره مروعة كاحتدام المنون
وما كنت ادري بأن الزهور ستذبل يوما
وان الصباح الجميل سيغمض جفنيه ظلما ! !

الكويت　　　　راضي صدوق

الشاعر جورج صيدح

بقلم مارتينو ماريو مورينو

ترجمة عيسى الناعوري

* * *

كان المستشرق الايطالي الكبير الدكتور مارتينو ماريو مورينو قد كتب من قبل ثلاث دراسات غير هذه ، عن الشعراء المهجرين: شفيق معلوف ، الشاعر القروي ، والياس فرحات . وهذه هي الحلقة الرابعة من السلسلة ، وقد خصصها لدراسة الشاعر جورج صيدح ، ونشرها في العدد الرابع من السنة الثامنة من مجلة « المشرق — ليفانتي » التي تصدر بالعربية والايطالية عن مركز العلاقات الايطالية العربية في روما . وهذا العدد صدر في ديسمبر ١٩٦١ (المترجم) .

•

(تكملة لسلسلة الشعراء السوريين — اللبنانيين في اميركا اللاتينية — انظر مجلة المشرق — ليفانتي ، الاعداد ٢ و ٤ لعام ١٩٥٩ والاول من سنة ١٩٦١) .

ولد جورج صيدح عام ١٨٩٣ في دمشق ، وفيها درس دروسه الاولى ثم انتقل الى مدرسة الاباء اللعازريين في عينطورة ؛ حتى نال شهادتها عام ١٩١١ ، ثم انصرف الى التجارة ، وانتقل وهو ابن تسعة عشر عاما الى القاهرة عام ١٩١٢ لدى بعض اقربائه . غير ان التجارة لم تناسبه ، فساءت اعماله ، وعند ذاك سافر عام ١٩٢٥ الى باريس ، بعد ان قام بجولة في بعض الاقطار الاوروبية ، وهناك تزوج عام ١٩٢٧ بفتاة فرنسية جميلة عالية الثقافة .

وفي العام نفسه هاجر مع قرينته الى فينيزويلا ، وهناك قضى عشرين سنة يزاول التجارة بنجاح كبير ، ويمارس معها نظم الشعر الذي كان قد حمل معه شعلته مضيئة من لبنان . وفي عام ١٩٤٧ انتقل الى الارجنتين ، وهناك ايضا راح يمارس الى جانب جمع المال ، خدمة ربة الشعر ، وخدمة الجالية العربية ، وفي احضان تلك الجالية انشأ « الرابطة العربية » مثلما كان قد انشأ في فينيزويلا مجلة « الارزة » التي كان يوزع اعدادها مجانا .

وحينما اصبح على حظ كبير من الثروة والشهرة معا ، عاد الى الوطن عام ١٩٥٢ ، واقام في بيروت بعد ان قام بسلسلة من الرحلات . وهناك نال الجنسية اللبنانية ، غير ان روحه التي لا تعرف الاستقرار ، وتنزع الى الحركة — وقد اطلق على نفسه لقب « الشاعر الرحالة » — جعلته يتخذ بعدئذ من باريس مكان اقامة له ؛ الا في فترات متباعدات يعود فيها من حين الى اخر الى الشرق .

في عام ١٩٤٧ اصدر ديوانه « النوافل » وقد رصد ريعه لمساعدة ابناء فلسطين . واصدر عام ١٩٥٣ ديوان « النبضات » ثم « حكاية مغترب » عام ١٩٦٠ ، وهو الكتاب الذي اشرنا اليه في العدد ٢ من مجلة « ليفانتي » عام ١٩٦١ .

والعنوان « حكاية مغترب » هو عنوان احد اقسام الديوان ، وهذا القسم لا يروي الاحداث مباشرة ، وانما يعبر عن تجارب الشاعر خلال مدة اغترابه : منذ سفره الى مصر حين يقول :

اذا البلبل الفريد فارق روضه . فكل رياض الكون في عينه قفر

الى شعوره بالضعة لخسارته التجارية ، الى المه في الرحلة الطويلة التي قام بها في سفينة مع بعض المهاجرين العرب الاخرين الى اميركا ، الى الامال التي تنفتح في القلوب مع الوصول الى كراكاس ، الى رحلة البرازيل عام ١٩٤١ الى انطباعات عودته القصيرة الى الوطن بمهمة كلفه بها الجنرال بيرون . غير ان الديوان كله حديث مغترب ، ولهذا ينطبق العنوان تماما على الكتاب بمجموعه ، وهو يشتمل كذلك على احسن انتاج الشاعر مما نظمه من قبل.

ان شعر جورج صيدح يتميز بالخصائص عينها التي يتميز بها ادب الكتاب السوريين واللبنانيين في اميركا اللاتينية ، فهو مشبع بالكلاسيكية ، انيق في عبارته ، عصري في افكاره وفي تنوع اوزانه وقوافيه ، الا انه يبقى غريبا عن الاتجاهات الرمزية والغموضية «ارميتزم» والشعر الحر ، الذي عرضته هذه المجلة بالمقال الذي كتبه باولو منغانتي في العدد الاول من عام ١٩٦١ من هذه المجلة ، وهذه هي احدث المذاهب الادبية اليوم . .

وفنه الشعري توضحه وتحدده جيدا قصيدته التي جعل عنوانها « طائرات الشعر » . وفي ما يلي بعض ابياتها :

طائرات الشعر في عصر الحديد ... سلمي الافاق للبرب الجديد
واخلعي اجنحة الروح ، فلا ... طيران اليوم الا بالوقود
فابحي في الجو ، غوصي في الندى ... ليس في فيك سوى طعم النقود
كان لبنانك وكنا شاديا ... زود العرب بقيثار وعود
صار برجا بابليا صاخبا ... صخب الاطفال في زفة عيد
جثم البوم على قنته ... والبغاث استنسرت تحت البنود
طائرات الشعر ، ان عجت اهبطي ... غير روضي ، واسمعي غير قصيدي
انا شعر صار فعلا ماضيا ... لا لم (احفره) بتكسير القيود
لا ولم ابصر وراء المبتدا ... خبرا في نقط بيض وسود
كيف يرضي ادبي طائفة ... عشقت كل غريب وبعيد
قيمة الاداب في تاثيرها ... في تجليها على كل صعيد
في تخطيها مدى النهر الى ... سمرات الكوخ والقصر المشيد
اين منها ادب مستحدث ... من سراب الفكر في اللفظ الشرود
عربي الوجه ، غربي اللها ... اعجمي الروح ، وحشي البرود

يخمل الجهر من يقرأه   ليرى جرثم معنى في صديد
انما الشعر انطلاق للذرى   واندفاق نحو اغوار وبيد
ما افاد الناس الا راجعا   من اعاليه الى سطح الوجود
بفم يحسن تطريب النهى   ويد تحسن تطبيب الكبود
ذاك فن ازلي ، ما استحى   بقديم او تبرا من جديد
انه البحر الذي امواجه   تتالى حرة ضمن الحدود
قل لمن يأنف من تقليده :   « أمن التجديد تقليد القرود ؟ »

ويمتاز الشاعر بدعابة فكهة لا يقنع في التعبير عنها بالشعر الفكاهي المألوف لدى الشعراء . ولكنه كثيرا ما يأتي في قصائد من اروع الشعر وأفخمه ، وفي عبارات مرتابة تهيمن على اندفاعات قلبه العامر بالاحاسيس وبالحماسة . فلناخذ مثلا القصيدة التالية ، «العائدون» وهي تدور على عودة بعض المهاجرين ، وعقد اجتماع لهم في دمشق . أنها تبدا بالتمجيد ثم تمضي الى الاشفاق ، ومن الاشفاق الى نكتة المراة التي توصي العائد باجتناب « برد العشايا » . ونحن نكاد نقف على حواشي الادب الكاريكاتوري « للاميركي العائد » في لبنان .

كللي بالزهر هامات الصبايا   وانثري الرايات يا دار صبايا
راقبي في الافق ركبا طائرا   حاملا للوطن الغالي هدايا
المنارات اشرأبت نحوه   والطيور انطلقت تهدي التحايا
جد في السير فما استوقفه   بردى ، الا لترويح المطايا
حج لبنان ، وكم من نازح   روحه حجت متى الجسم تنايا
انما الغياب افلاذ الحمى   سلخت عنه ، وعادت للحنايا
رجعوا كالجند من معركة   باد فيها جيشهم الا بقايا
تركوا الجرحى الاسارى خلفهم   والضحايا ، رحم الله الضحايا
ما سمات النصر في جبهتهم   غير آثار حراب وشظايا
كل ما نالوه من غاراتهم   لا يوازي ما اضاعوا من مزايا
رب كهل عاد منهوك القوى   كان قبل البين طلاع الثنايا
لم يجد من عهده في قومه   باقيا غير المخازي والشكايا
اكل الدهر على اترابه   فاذا عف فعن بعض البقايا
اللذاذات التي يشتاقها   اصبحت في ارذل العمر رزايا
والغواني ، ان ترفقن به   قلن: «يا شيخ اجتنب برد العشايا»
ولقد ينكره الاهل اذا   لم تعرفه الى الاهل العطايا !
يا لها من غربة ثانية   في صميم الدار ، ما بين الولايا
ان ما يدعونه « مؤتمرا »   متحف يجمع آثارا سنايا
نحن فيه سلع معروضة   بين جدران النوادي والسرايا
غربة ثانية ننشدها   ان تكن بلوى ، فما احلى البلايا !

اما قصيدته الخمرية المشهورة « الكوكتيل على الشاطىء » فهي على العكس من ذلك ، اذ تبدأ بنغم طروب بهيج ، ولكنها تنتهي بتفكير فلسفي في الحياة . ومن المؤسف انا لا نستطيع ان نترجم الى الايطالية ما فيها من تناسق الايقاع ، وروعة الموسيقى التي تنبعث من قافيتها الثابتة « هاتها » وهذه القصيدة هي :

خطر الساقي فقلنا هاتها   نحن نرضاها على علاتها
رب كاس زاد في لذاتها   الر الافواه في حافاتها
هاتها

طف ولا تصح عن الكاس الخضاب   طبعته شفة الخود الكعاب
ان مزجناه سكرنا بالرضاب   قبل ان نسكر من مزاتها
هاتها

هاتها ذوب لجين وذهب   سلطوا الثلج عليه فالتهب
خضخضوه فتلوى وانسكب   كسموط دردرت حباتها
هاتها

جمعوا الاضداد من شتى الخمور   وادارو الحرب في طاس تدور
فاذا في النقع ارواح تفور   فورة القهوة في مغلاتها
هاتها

هاتها تعكس اشباح الغروب   في خليط من عصارات تروب
كلما غص بها حلق الطروب   طلب التكرار من غصاتها
هاتها

ما لنا يحلو لدينا مرها ؟   تلك دنيانا وهذا سرها
خيرة اللذات طعما شرها   ويل من ينفر من ويلاتها
هاتها

لا تقل ولى زمان الطيبات   دونك البحر وهاك الفاتيات
لم يزل في الراس «الكوكتيل الحياة»   طافح الكاس بتذكاراتها
هاتها

هاتها وارفع بها عبء السنين   عن كهول مرحوا كاليافعين
انما الساعة عند العارفين   ساعة الكوكتيل في ميقاتها
هاتها

ويتجلى احساسه المرح ـ او لعله المداعب العابث ـ في قصيدة الشباب التالية ، التي يختمها ختاما لا يخلو من خبث ، وعنوانها « الى جارتي » :

انت لو كنت شعرت   بأسى الجار القريب
ربما كنت مررت   تحت شباكي القريب

انت لو كنت سمعت   انة من جانبيا
ربما كنت رفعت   نظرا منك اليا

انت لو كنت فهمت   سر قلبي من عيوني
ربما كنت ابتسمت   بسمة الاخت الحنون

انت لو كنت علمت   انني في الدار وحدي
ربما كنت وقفت   عند بابي دون قصد

انت لو كنت علمت   بالذي يقضي صباك
ربما كنت دخلت   (اوصدي الباب وراك)

وما دمنا في حديث شعر الحب والغزل، فأقدم في ما يلي مثالين اخرين الاول : الصبوح والغبوق (في جنائن دمشق) :

هيئي يا درة الخدر الشراب   وانزلي ، فالروض ابهى منزل
وتحلي بقليل من ثياب   وتخلي عن كثير الخجل
شاطريني مقعدي دون اجتناب   ملتقى الايدي ولمس الارجل
وتناسي انني رغم النقاب   سارق ، احسن خطف القبل
ليس شرع الحب يقضي بالحجاب   غير ما يمنع كيد العذل
نحن والكاس واحلام الشباب   عن عيون الرقبا في معزل
فاسفري، يسفر عن الروض الضباب   وابسمي ، تبسم ثغور الزهر لي
سلسليها من ثناياك العذاب   واشفعيها بالرحيق السلسل
ما الذ الراح مزجا بالرضاب   في ظلال الدوح قرب الجدول

والثاني : « على الهاتف » :

لج بي تذكارها ليلة سهد   وشجاني انني في الدار وحدي
اترى تشتاقني من بعد صد ؟   انا لا اسعى اليها بالتماس
لا اناديها ولو تقطع راسي

غير ان الهاتف الملقى بقربي   رقم الرقم الذي املاه قلبي
فاذا الصوت الذي ارجو يلبي   ويحييني ، فاستلقي التحية
زقزقات من فم الخط شجيه

قلت : اوصيك بنسياني بتاتا   لا تضيعي الجهد غنجا وشكاتا
قد خنقت الحب في صدري فماتا   فاحجبي وجهك عني ما حييت
حاذري ان تطرقي باب مبيتي

سقط الهاتف من كف الصبيه   واطاعتني .. بعصيان الوصيه !
فهمتني مرة .. يا للذكية !   اقبلت من فورها تعدو اليا
وطوانا الليل بالاستار طيا

غير ان هذه الغراميات العابرة التي استمرت حتى زواجه السعيد ، لم تكن وحدها هي التي تملأ قلب الشاعر ، بل كان هناك ايضا حبه للشرق البعيد ، حيث يتساوى حبه لسوريا التي ولد فيها ، وللبنان الذي تلقى فيه تعليمه ، ولمصر التي اقام فيها مكرما عدة سنوات . وكم تزخر بالحنين قصيدته التالية التي يخاطب فيها نهره الحبيب بردى وعنوانها « بردى » :

حلمت اني قريب منك يا بردى   ابل قلبي كما بل الهشيم ندى
ونصب عيني من البلدان ابدعها   سبحان من ابدع السكان والبلدا
دمشق اعرفها بالقبة ارتفعت   بالمرجة انبسطت ، بالشاطىء ابتردا
بالطيب يعبق في الوادي ، واطيبه   في تربة الارض غذاها دم الشهدا
امشي على الضفة الخضراء مؤتنسا   بالحور والسرو والصفصاف ، منفردا
واهبط المنحنى مستنطقا فمه   صدى الليالي الخوالي، لو يعيدصدى
تغوص في لجك الثرثار ذاكرتي   على الاغاني التي اسمعتني ولدا
من الهدير على البطحاء مبتدرا   الى الخرير على الحصباء ، متئدا
فاتتني ، وربيع العمر عاودني   كانني لم اضعه بالتزوح سدى
يا مورد الغوطة الفيحاء، ما بخلت   بالاطيبين ، وما ضاقت بمن وردا
اهواك في ثوبك الفضي زركشه   بدر الدجى بشعاع حوله سدا
اهواك في صفحة للفجر ضاحكة   خط النسيم عليها شعره زبدا
اهواك في قلبك الشفاف لاح به   ظل المآذن والاشجار مطردا
اهواك كالليث وثابا ومقتحما   كالافعوان تلوى ، كالغزال عدا
اهواك في يقظتي ، اهواك في حلمي   اهواك مقتربا ، اهواك مبتعدا .

ويعود الى لبنان بقلبه الذي « جنحه بالذكريات » في قصيدته الى مدرسة عينطورة وفي قصائد اخرى غيرها. وهو يقول باسلوبه الفكه المعروف :

اشيب وقلبي اخضر مثل ارزه   وراسي حديا رأس صنينه العاري

وكم يتندر جورج صيدح بصلعته في شعره الفكاهي ، وكذلك اصحابه الشعراء . اما مصر فيخاطبها قائلا :

لبيك يا مصر ، قد خاطبت ذا مقة   لا يذكر النيل الا والحشا صادي
كنت الضحىفي حياتيقبلما انحدرت   شمسي الى الغرب في منأىعن الضاد

والضاد هي النغم الخاص باللغة العربية ، وكل البلاد التي تنطق بالضاد تؤلف وطنا واحدا كبيرا لدى صيدح رغم الحدود السياسية « واعتنقنا دين العروبة دينا .. »

شرع مجدنا : سواء نسبنا   ارز صنين ام نخيل المقطم

وهو لا يبحث عن قلبه في الشام وحدها ، بل في بيروت ، والقاهرة ، والقدس ، ومكة ، واليمن . والشاعر يتحدث باسهاب عن القضايا الوطنية ، وافكاره فيها شبيهة بافكار زملائه الثلاثة الاخرين في اميركا اللاتينية ، واسلوب رفيع كاساليبهم . (يقصد : شفيق المعلوف والقروي وفرحات ، الذين سبق ان كتب عنهم «المترجم»)

وهناك كثير من قصائد المناسبات . وعلى الرغم من ان هذه القصائد لها قيمتها الكبيرة ، الا انها ، كالقصائد السياسية ، تصعب ترجمتها ، بحكم طبيعتها ، دون اللجوء الى الشروح الكثيرة . والقصائد التهكمية لا تجيء مستقلة ، بل تختلط بالمواضيع الاخرى ، كما راينا في ما تقدم اختلاط الجد بالهزل . وسنحاول ههنا — مع الحفاظ على شيء من القافية بالايطالية — ان نترجم قصيدة من شعره العائلي ، تذكر القارىء الايطالي بقصيدة ادموندو دي اميتشيس التي يستهلها بقوله (كم اجد طفلي مصبوغا !) . وقصيدة صيدح هذه حلوة جدا في لغتها الاصلية ، وعنوانها : « شيطنة » :

ابنتي مع كلبها تلعب في رحب الحديقه
امها غابت ، فمن ذا يكبح البنت الطليقه ؟
اعلنتها ثورة ضد المراسيم الوثيقه
وعدت ، كالآبق العجلان يشق طريقه
ضربت في العشب، داست احص الزهرالانيقه
ومضت تفرك آذان الافانين الصفيقه
مورقات ، اصبحت ارجوحة اللهو الحليقه
رشرشتها بسخاء ترك العطشى غريقه
من رآها ظنها تطفىء بالماء حريقه
رب ورد هاجمته وهي للورد شقيقه
وبسين داعبته ؛ اسمع الحي شهيقه
كلبها المؤول عنها قلق يبلع ريقه
خائف عاقبة الطيش على « خلف » الرنيقه

وانا في مقعدي اسعد حي في الخليقه
اتغاضى ، وعيوني لنم تفارقها دقيقه
اجتلي في وجهها وجهي ، وعرقي ، والسليقه
خلف منظاري توارت دمعة الشكر الرقيقه
دمعة العاشق لا يردعه ضحك العشيقه
دمعة تغسل اوزار الصبابات العتيقه
دمعة افرغت الاحلام في جفن الحقيقه
دمعة تستعطف الدهر وتستعطي رحيقه
ليته يجمع عمري في سويعات الحديقه !

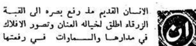
المراجع : « ادب المهجر » لعيسى الناعوري . « ادبنا وادباؤنا في المهاجر الاميركية » لجورج صيدح . « شعر من المهجر » لمحمد قره علي » . « الشعر العربي في المهجر الاميركي » لوديع ديب .

عمان   عيسى الناعوري

من جمهورية افلاطون الى ثورة في الجحيم

بقلم مير بصري

* * *



ان الانسان القديم مذ رفع بصره الى القبة الزرقاء اطلق لخياله العنان وتصور الافلاك في مدارها والسماوات في رفعتها وعظمتها .

لعل افلاطون الفيلسوف اليوناني تلميذ سقراط اقدم من كتب رحلة الى العالم الآخر . ولئن كان كتابه الشهير « الجمهورية » الذي الفه في القرن الرابع قبل الميلاد يمثل المدينة الارضية الفاضلة ، لقد ختمه بقصة رحلة مقتضبة الى الجنة والنار الوثنيتين ، فقال ان آر بن ارمنيوس البمفيلي لقي حتفه في بعض المعارك ، فلما رفعت الجثث بعد ايام لدفنها وقد دب فيها الفساد ، وجدت جثة هذا الرجل طرية لم يسمها الموت بميسمه . وفي اليوم الثاني عشر دبت فيها الحياة ، ففتح الميت عينيه وروى للسامعين مشاهداته في العالم الآخر . قال « آر » انه لما بارحت روحه غلاف الجسد ، انضمت الى الارواح التي قصدت موضعا خفيا ، فاذا بفجوتين في الارض تقابلهما فتحتان في السماء ، وقد جلس بينهما القضاة يحاكمون الارواح فيرسلون البررة الى اليمين حيث طريق السماء والاشرار الى اليسار حيث الحضيض الاوهد . فلما بلغ « آر » ذلك الموضع انبىء ان اسمع وانظر واحفظ جيدا لتبلغ الاحياء رسالة ما وراء الموت . ورأى عندئذ الارواح الصاعدة الى السماء مهللة لا مستبشرة ترتدي حلل البهاء ، اما تلك الهاوية الى الحضيض فكانت تنوح وتزفر مجللة بالرماد . وقص القادمون من سقر رواية شقائهم وعذابهم في العالم السفلي حيث ينال المجرمون والسفاكون والخونة وسائر الطالحين جزاء شرورهم وعدوانهم . وقد غلت ايدي الاشرار الآثمين وارجلهم واعناقهم وطرحوا ارضا تلهب ظهورهم المقارع والسياط ودحرجوا الى جانب الطريق ونشروا ثمة نشر الصوف على العوسج .

اما الارواح الصالحة فعرجت في السماء واطلت على عمود النور العظيم الذي يخترق السموات والارضين ، وهو اصفى وانقى من قوس الغمام ، وقد ثبت في طرفيه « مغزل الضرورة » الذي يتم به دوران الكون ، وجلست بجانبه « بنات القدر » الثلاث على عروشهن ... واختتم افلاطون روايته داعيا الى وجوب الامعان في الدرس التماسا للخير واجتنابا للشر .

ثم تمضي الف واربعمائة سنة وينتقل مركز الثقافة البشرية من بلاد الاغريق الى ديار العرب ، وينبغ في معرة النعمان ابو العلاء الاعمى الذي كتب « رسالة الغفران » جوابا على رسالة وردته من ابن القارح . وهو يصور مراسله متنقلا في جنان النعيم ، وقد غرس له شجر في الفردوس لذيذ الاجتناء تجري في اصوله انهار تختلج بماء الحياة والكوثر واللبن والرحيق المختوم ... ويواصل المعري وصف الجنة وذكر ندامها وشعرائها ومغنيها وقيانها والاشارة الى مآدبها واسمارها ، ثم ينتقل الى وصف جنة العفاريت حتى يأتي الى الجحيم ، فاذا بابليس، لعنه الله ، وهو يضطرب في الاغلال والسلاسل ، ومقامع الحديد تأخذه من ايدي الزبانية . وفي الجحيم طائفة من الشعراء والشاعرات كالخنساء وامرىء القيس وعنترة وعلقمة وعمرو بن كلثوم والحارث اليشكري وطرفة والاخطل والشنفري وتابط شرا ..

ويعود المعري الى الجنة ليناقش ابا البشر ويسأله هل نظم الشعر الذي نسب اليه ؟ فيقول آدم : « اعزز علي بكم : معشر بني ! انكم في الضلالة متهوكون . آليت ما نطقت هذا النظيم ولا نطق في عصري ، وانما نظمه بعض الفارغين ، فلا حول ولا قوة الا بالله ! كذبتم على خالقكم وربكم ، ثم على آدم ابيكم ، ثم على حواء امكم ، وكذب بعضكم على بعض ! »

ولقد ذهب فريق من النقاد والادباء الى ان رسالة الغفران قد اوحت الى دانتي « ملهاته الالهية » الشهيرة ، لكن طائفة من المستشرقين قد رجحوا ان الشاعر الايطالي انما تأثر بمحي الدين بن عربي الفيلسوف المتصوف الإندلسي .

ولد ابن عربي الملقب بالشيخ الاكبر في مرسية سنة ١١٦٥ م. وانتقل الى اشبيلية وزار الشام وبلاد الروم والعراق والحجاز ، ثم القى عصا الترحال في دمشق وتوفي بها سنة ١٢٤٠ م. واشهر كتبه «الفتوحات المكية» وقد تخيل في الباب الـ ١٦٧ منه ــ وعنوانه « في معرفة كيميا السعادة » ــ شخصين احدهما مقلد او تابع وثانيهما مبتكر او ــ كما دعاه ــ صاحب نظر ، وقد مضيا ليجوسا خلال الديار السماوية . نزل صاحب النظر في القمر فلم يفز بطائل ، اما المقلد فتبع آدم واخذ عنه « اكسير العارفين » . وأرتقى الشخصان في معراج الارواح الى السماوات السبع فاطلعا على اسرار الخليقة والكون . وفاز المقلد بالعلم لانه تلقى اسراره من الانبياء ، في حين ان صاحب النظر الذي وثق بعقله وعول على نفسه لاستنباط الامور لم يفقه شيئا ووقف عند « منتهى الدخان » في نهاية السماء السابعة ولم يتجاوزه .

ومضى التابع في طريقه فاتى الى سدرة المنتهى ورأى

« صور اعمال السعداء من النبيين واتباع الرسل » ، ثم ارتقى في فلك المنازل ، فتلقاه الملائكة والارواح الكوكبية ، فماذا رأى في الجنان ؟ قال ابن عربي : رأى في كل حين من خلق جديد ونعيم جديد حتى لا يقع ملل . فان كل شيء طبيعي اذا تولى عليه امر ما من غير تبدل لا بد ان يصحب الانسان فيه ملل ، فان الملل نعت ذاتي له ، فان لم يغذهم الله بالتجديد في كل وقت ليدوم لهم النعيم بذلك والا كان يدركهم الملل . فأهل الجنان يدركون في كل نظرة ينظرونها الى مليكهم امرا وصورة لم يكونوا رأوها قبل ذلك فيتنعمون بحدوثها وكذلك في كل اكلة وشربة يجدون طعما جديدا لذيذا لم يكونوا يجدونه في الاكلة الاولى فيتنعمون بذلك وتعظم شهوتهم . والسبب في سرعة هذا التبدل وبقائه ان الاصل على ذلك فيعطى في الكون بحسب ما تعطيه حقيقة مرتبته ليكون خلاقا على الدوام ويكون الكون فقيرا على الدوام ، فالوجود كله متحرك على الدوام دنيا وآخرة لان التكوين لا يكون عن سكون ...

واما صاحب النظر رفيق التابع فما عنده خبر بشيء من هذا كله لانه مقيد تحت سلطان فكره ، وليس للفكر مجال الا في ميدانه الخاص به

ويصل التابع مع حامله الى الكرسي فيرى فيه انقسام الكلمة التي وصفت قبل وصولها الى هذا المقام بالوحدة . ثم يرقى الى اقدام العرش ويشهد اللوح المحفوظ والقلم الاعلى :

فما ثم الا الله لا شيء غيره وما ثم الا وحدة الوحدات !

ان هذه الرحلة السماوية لهي رحلة صوفية ذهنية بخلاف رحلة المعري التي يصح نعتها بالادبية والحسية .

ودار الزمن دورته ، فاذا ايطالية على قاب قوسين من الاندلس والقرن الثالث عشر لا يكاد يطوي اعلامه ليفتح ابواب القرن الرابع عشر الجديد ، لكن دانتي الشاعر السياسي يختلف كل الاختلاف عن ابن عربي الفيلسوف المتصوف . ولذلك جاءت « الملهاة الالهية » التي يقال انها استوحت في جملة ما استوحته من فكرة « الفتوحات المكية » تختلف كل الاختلاف عنها ، فلا جامع بين الاثرين الا الفكرة المشتركة .

ولد دانتي اعظم شعراء ايطالية في فلورنسة سنة ١٢٦٥ اي بعد مائة عام من مولد محي الدين بن عربي ، وتوفي بعد حياة حافلة بالمغامرات السياسية والنفي والحب والادب في سنة ١٣٢١ . وقد خلدت اسمه « الملهاة الالهية » التي الفها في اواخر حياته .

يستيقظ الشاعر ذات صباح فيجد نفسه تائها في غابة كثيفة ملتفة الاشجار ، فاذ يلتمس السبيل الى الخروج يعترض طريقه ذئب واسد ونهد ، وهو يرمز بهذه الحيوانات الى الطمع والعزة وملذات الجسد . وبينما هو في ضلاله اذ يظهر له فرجيل الشاعر اللاتيني القديم ، فيأخذ بيده ليدله على الصراط المستقيم . يذهب به فرجيل في بادىء الامر الى الجحيم ، فيرى في دركاته فريقا كبيرا من اعاظم رجال التاريخ واهل عصره ، من ملوك واباطرة وشعراء ومحاربين واوساط الناس ، يذوقون في سقر ضروب الهوان والعذاب والحميم، جزاءا وفاقا لهم على ما اقترفوا من معاص وجرائر وآثام . وفي قعر الجحيم قبع ابليس اللعين مثبتا في الجليد لا يستطيع حراكا .

ثم يمضي فرجيل برفيقه الى المطهر حيث تنقى الارواح من ادرانها وتعالج بالصبر ومجاهدة النفس لتستحق النعيم المقيم . وفي تخوم المطهر ترتفع ابراج السماء ، فيسلم فرجيل وديعته الى حبيبته « بياتريس » التي تتولى اصطحاب الشاعر الى غرف النعيم حتى تصل به الى السماء العليا ليحظى بنور سر الاسرار .

يطل علينا الان العصر الحديث فتكثر السياحات الى العوالم العلوية . ونحن نجتزىء من موضوعنا بتلخيص ثلاث قصائد اولاها فرنسية والاثنتان الاخريان عربيتان لعل فيها مؤانسة وامتاعا :

فاما القصيدة الفرنسية فهي تعد حقا من عيون الشعر العالمي ، وعنوانها « علواء » او « اخت الملائكة » ، نظمها شاعر التشاؤم والكبرياء النفسية الفرد دي فني وعمره لا يتجاوز السادسة والعشرين . نبغ الفرد دي فني في مطلع النهضة الابتداعية التي جددت شباب الادب الفرنسي في اوائل القرن التاسع عشر وكان من اساطينها ، الى جانب شاعرنا ، لا مارتين وفكتور هوغو والفرد دي موسيه وغيرهم من الشعراء الذين انتقضوا على الادب الاتباعي (الكلاسيكي) . ويمكن مقايسة قصيدة فني التي سنأتي على تحليلها الان بقصيدة لا مارتين «سقوط ملاك» وقصيدة هوغو « نهاية الشيطان » .

ان هذه الملحمة تمثل خلاصة فلسفة فني الذي قرن التشاؤم بالانفة والترفع على المجتمع والطبيعة ، فكان تشاؤما مستمدا من صميم النفس العظيمة ، تشاؤما لا يحدو بصاحبه على اليأس القاتل او الاستسلام للايمان بل يبعثه على الصمت الجبار والسكوت الابي الذي قال فيه فني نفسه في قصيدة اخرى :

ان السكوت وحده عظيم ، وكل ما عداه محض ضعف !

ولا تمتاز « علواء » بسمو الفكرة وغرابتها فحسب ، بل تمتاز ايضا بالتعبير المتسلسل الاخاذ وبالجرس الموسيقي الساحر وباللغة المتموجة المختارة الالفاظ التي تسكر الارواح وتترك في نفس المتذوق اريج الزهر وطعم الرحيق . ان من يؤمن بسحر الكلمة لا بد له ان يقرأ ، بين الحين والحين ، مثل هذا الشعر بصوت رفيع ليشنف الاذن ويمتع الروح ويرتفع بالفكر الى افق سام من السنى والسناء :

ومضمون القصة ان دمعة سقطت من عين السيد

المسيح ـ دمعة قدسية من دموع المودة والوفاء ، فتلقفتها الملائكة في قارورة من الجوهر وحملتها الى عرش الله ؛ حتى اذا ما حظيت بفيض الرحمة الربانية صبت فيها روح الحياة وخرجت فتاة بهية من ملائكة السماء . دعيت « علواء » (ايلوا) واشرقت في جمالها كالزنبقة النقية ، ملتفعة بغلالة من النور الشفاف ، تفيض من قسماتها اشعة الخير والرحمة والبركة . منحت اختا طاهرة للملائكة الابرار ، فلم تلبث ان اصبحت عنوان مسرة اهل السماء ، يلتفون حولها ويتطلعون الى محاسنها ويأنسون بجوارها ويشيدون بمحامدها . وارتفعت الاصوات الخالدة تغني غابطة العالم السعيد الذي هيىء ليتلقى عونها والاجيال الهانئة التي كتب لها ان تحظى بعطفها وحنانها .

وفي ذات يوم زل بالملائكة اللسان فقالوا لصاحبتهم : « احذري ، يا اختنا الصغيرة ، فالملاك قد يأثم ويسقط .. الا تعلمين ان اجمل الملائكة قد اخذته العزة وتملكه الغرور فهوى من عليائه واقصي عن ملكوت السماء ، فمضى يحمل في كيانه بذور الشر والشقاء وينشر الموت والنار حواليه؟. ان اهل السماء ليذكرونه دوما ولكن يهابون تصور رسمه والتلفظ باسمه ... » وقد ظن الملائكة ان علواء ستصب عليه جام اللعنة والنقمة ، لكنها ارتعشت اشفاقا على الملاك الهاوي وفاض قلبها بالرأفة وعينها بالدمع .

ومنذ ذلك الحين اصبحت حزينة لا تفكر الا فيه ، وتتساءل كيف يتسنى لها انتشاله من وهدته واعادته الى منازل البهاء . اصبحت لا تأنس بمشاهد الفردوس البهية ولا تطرب لانغام الافلاك الخالدة ، وفي قرارة نفسها ظما دائم الى الشقي الاعظم المجهول وشوق طاغ الى مساعدته لانه الوحيد الذي يفتقر الى عونها ورعايتها . ولا تملك في آخر الامر الا ان تنطلق الى العوالم السفلى بحثا عن الملاك الساقط ، فتتلوث اجنحتها الفضية بالهواء الفاسد ، ويصك اذنيها غناء الابالسة وكلامهم النافر ، حتى رات الشقي قابعا وحيدا بين الغيوم والابخرة الداكنة ، وقد ارتسم الحزن الابدي على ملامحه ...

لقد مدت له يدها وحاولت رفعه من الحضيض واعادته الى مغاني النعيم ؛ لكن هيهات ... اجتذبها الى الهوة وصاح بها : تعالي ، تعالي . ودار بينهما الحوار التالي :

ـ اين تمضي بي ، ايها الملاك الجميل ؟

ـ تعالي ، تعالي .

ـ يا للصوت الحزين ، يا للخطاب الحالك . الست انا التي تحطم سلاسلك ؟ لقد حسبت انني قد وهبتك النجاة .

ـ كلا ، وانما انا الذي اجتذبك !

ـ اذا فزنا بالوصال فلا يهمني أين يكون ذلك ، فنادني مرة أخرى بأحب الاسماء اليك .

ـ لقد استوليت على أمتي وامسكت بفريستي .

ـ آه ، ظننتك طيبا ؛ فماذا اقترفت انا من الآثام ؟

ـ لقد اثمت حقا .

ـ هل سنحظى الان بالسعادة وتكون اكثر سرورا ؟

ـ بل سأكون اكثر حزنا من ذي قبل .

ـ من انت اذن ؟

ـ انا الشيطان !

وننتقل من شيطان فني الى شيطان العقاد ، ولكن لا نسب بينهما ولا سبب . نظم عباس محمود العقاد قصيدته « ترجمة شيطان » وهو في نحو الثلاثين من عمره ، وجعل اشطرها مسمطة لكي لا يرهقه الروي الواحد الراتب ، وقدم لها بالتوطئة الآتية :

« في هذه القصيدة قصة شيطان ناشىء سئم حياة الشياطين تاب من صناعة الاغواء لهوان الناس عليه وتشابه الصالحين والطالحين منهم عنده . فقبل الله منه هذه التوبة وادخله الجنة وحفه فيها بالحور العين والملائكة المقربين . غير انه ما عتم ان سئم عيشة النعيم ومل العبادة والتسبيح وتطلع الى مقام الالوهية ، لانه لا يستطيع ان يطلبه ويصبر على الحرمان منه، فجهر بالعصيان في الجنة ومسخه الله حجرا ، فهو ما يبرح يفتن العقول بجمال التماثيل وآيات الفنون . وقد نظمت هذه القصيدة في اواخر الحرب العظمى ، فكل ما فيها من الالم واليأس فهو لفحة من نارها وغيمة من دخانها . »

وشيطان العقاد :

صاغه الرحمن ذو الفضل العميم   غسق الظلماء في قاع سقر
ورمى الارض به رمي الرجيم   عبرة ، فاسمع اعاجيب العبر

فهذا الشيطان على نقيض شيطان سعدي الشيرازي الذي ظهر بشكل فتى جميل القسمات ، وضيء الملامح ، حسن البزة ؛ فلما قيل له ان الشيطان لا يكون الا قبيح المنظر ، زري الهيئة ، قال : ليس هذا شكلي ، ولكن القلم بيد عدوي .

هوى شيطان العقاد في بعض الاصقاع :

ورمى اول فخ فاصابا   ودعاه الحق واستلقى فنام
واناب الحق عنه فاستجابا   فاذا الحق لجاج واختصام
واذا الحق طلاء الخبثاء   رسن الواهن ، سيف المعتدي
ضلة الجهال ، لغز الحكماء   ذلة العبد ، عرام السيد ...

وامعن الشيطان في اغواء الناس حتى انف من فتنته :

ما له يفسد خلقا عدموا   آية الرشد ، وهبهم رشدوا
وعلام السلب مما غنموا   وهم لو غنموا لم يحمدوا ؟
كلهم طالب قوت ، والثرى   ذل قوم او تعالوا ، فخصب
وقصارى الامر في هذا الورى :   راسب يطفو وطاف يرسب

فلما تاب وادخل الجنة مل المقام فيها ووجد اهلها اشقى الخلق طرا وضاق ذرعا بالخلود وتطاول الى مقام العرش، فمسخه الله صخرا :

ولقد قال اناس شهدوا   مصرع الشيطان : هل طبع يزول ؟
ناره تخبو فلا تتقد   وهو في الصخرة يستهوي العقول

ان العقاد ابتنى بيتا ريفيا لطيفا ؛ لكن جميل صدقي الزهاوي قد شيد قصرا ممردا منيفا في قصيدته ، ثورة في الجحيم ، التي يصح ان تتبوأ المحل اللائق بها في الاداب العالمية الحديثة . نظم الزهاوي هذه القصيدة في سنة ١٩٢٩ ونشرها في ديوانه الخامس « الاوشال » المطبوع في بغداد سنة ١٩٣٤ . وعدد ابياتها نيف واربعمائة بيت ذات قافية واحدة ، ولذلك جاءت في بعض الاحيان راتبة مملة ، واضطر الشاعر الى استعمال الفاظ نابية كالقمطرير والعنقفير والمحضير والماطور والحيمور والتامور والجرجير. والقصيدة على الاجمال سلسلة حلوة الايقاع ، ولو ان القارىء يشعر احيانا بثقل ناشيء عن استعمال بحر الخفيف غير مخبون ، والخبن مستحسن في هذا البحر ليضفي على الابيات خفة ورشاقة . هذا من حيث الشكل، اما من حيث المعنى فقد اتخذ الشاعر من قصيدته وسيلة للجهر بآرائه ومعتقداته ، كايمانه بالعلم ودعوته الى السفور ومكافحته للخرافات وانصياعه لسلطان العقل وحيرته في معضلات الكون ...

قال الزهاوي :

بعد ان مت واحتواني الحفير   جاءني توا منكر ونكير
ملكان استطاعا الظهور ولا ادري م   لماذا او كيف كان الظهور ...
كنت في رقدة بقبري الى ان   ايقظاني منها وعاد الشعور
فبدا القبر ضيقا ذا وخوم   ما به للهواء خرق صغير ..
الن خاب حفرة ذات ضيق   ولمن فاز روضة وغدير ؟ ...

ولما نظر اليه شزرا اشد الملكين فظاظة وغلظة وساله : من هو ؟ ارتعدت فريصته خوفا وهو الشجاع الجسور ، وقال : شيخ في لحده مقبور . وساله عما فعله في حياته الارضية ، فقال : مارست الشعر وعبدت الله ودنت بالاسلام . وقال انه كان عبدا مسيرا لا خيار له ولا تخيير، لكنه لم يحاب ، ولم يداج ، بل صدع بالحق . واعترف بأن الشكوك ساورته واقلقته :

غير اني ارتاب في كل ما قد   عجز العقل عنه والتفكير
لم يكن في الكتاب من خطأ كلا م   ولكن قد اخطأ التفسير

ثم يبدي رايه في السفور وتفضيله على الحجاب ويحشر هذا الراي حشرا بين الله والملائكة والسماء والجن والشياطين . ويطلب من الملكين تركه وهو الشيخ الجدير بالعطف ، فهل يحظر على الاحرار قول الحق الصراح حتى في القبر ؟ ولا يتورع ان يعنفهما ويقول : لم لم تسألاني عن ضميري العفيف وجهادي في سبيل الحق ودفاعي عن بلادي وذيادي عن الجنس اللطيف وتمسكي بالصدق والوفاء ورفعي لشأن الشعر والفن ؟ ... لكن احتجابه لم يغن عنه شيئا ، فوصمه الملكان بالالحاد وضرباه بالمقامع والسياط وشوياه بالنار ونكلا به تنكيلا ، ثم اخذاه الى الجنة ليشهد هناء أهلها امعانا في تعذيبه .

يصف شاعرنا الجنة فاذا هي حافلة بالملذات واطايب الطعام والشراب ، لا موت فيها ولا موبقات ، لا حر ولا زمهرير . ثم اخذ الى سقر وقذف في جوفها قذفا ، فيقول :

لست أستطيع وصف ما انا قد قا   سيت منها فانه لعسير
ربي اصرف عني العذاب فاني   ان اكن خاطئا فانت الغفور

ويصف عذاب الجحيم وصفا مؤثرا ، ثم يذكر قصة ليلى الفتاة التي فرقوا في النار بينها وبين حبيبها سمير :

كنت امشي فيها فصادفت ليلى   بين اتراب كالجمان تسير
فوق جمر يشوي ونار تلظى   وافاع في نابهن شرور
وعيون الحسناء مغرورقات   بدموع فيها الاسى منظور
قلت : ماذا يبكي الجميلة ؟ قالت: انا لا يبكيني اللظى والسعير
انما يبكيني فراق حبيبي   وفراق الحبيب خطب كبير ...

وابصر في الجحيم من الشعراء الفرزدق والاخطل وجريرا والمتنبي والمعري وبشارا وابا نؤاس والخيام ودانتي وشكسبير وامرأ القيس ، والى جانبهم العلماء الفلاسفة كسقراط وافلاطون وارسطو وكوبرنيكوس وداروين وهيغل وسبنسر واسبينوزا ونيتشه ونيوتون ورينان وروسو وفولتير وزرادشت ومزدك وابيقور والكندي وابن سينا وابن رشد والراوندي ونصير الدين الطوسي والحلاج وهلم جرا .

واخترع احد اهل النار آلة تطفىء السعير ، فهب القوم ثائرين واطفأوا نار جهنم ، وزحفوا وفي مقدمتهم ابو العلاء المعري يستحثهم منشدا :

غصبوا حقكم فيا قوم ثوروا   ان غصب الحقوق ظلم كبير

وشهدت جهنم حربا ضروسا اسفرت عن فوز اهل النار واحتلالهم للفردوس ... وانتبه الشاعر من منامه ، فاذا الصبح قد اشرق واذا الشمس في السماء تنير ، ولم يكن الا حلما قد اثاره اكل الجرجير ، وهي بقلة مرذولة .

ولا اراني مبالغا ولا مشتطا اذا قلت ان شاعرنا الزهاوي قد استحق بهذه الملحمة الرائعة مكانة سامقة بين شعراء العالم الخالدين .

بغداد   مير بصري

— وهل اجمل من الوحدة .. ؟

— نعم .. أن تتحرري منها ..

— لا .. لست على استعداد لان اهرب من الجمال ..

— انت تصفين الوحدة بالجمال لانك لم تعيشي الا وحيدة .. ولو عشت اياما متحررة من الوحدة لتفتحت امامك آفاق كلها جميلة .. اقلها جمالا اجمل من الوحدة ...

— قد تكونين على حق يا هند .. لكنني لست على استعداد لان اتحرر من وحدتي ساعات اقضيها تائهة ضائعة في خضم حياتكم ثم اعود الى وحدتي لاعيش فيها اياما .. ساكون حتما كالمريض الذي يعالج مرضه بمخدر ، فما ان يزول أثره حتى يعود المرض اقسى واشد ..

— حقا انك مريضة يا نجاح ، مريضة بالوحدة ، بالانطواء، بالتشاؤم، لكن مرضك ما زال في دور التكوين ومن السهل اخماده والقضاء عليه .

— هند .. عفوك .. هند .. لقد ولدت وعشت وساموت وحيدة .. تفتحت عيناي على بيت اختل نظامه. اب اناني حتى العظام ، وأم مريضة انهكها الولد يأتي تلو الولد .. ؛ نشأت في فوضى كان المفروض ان آلفها وآنس اليها ، لكنني رفضتها .. رفضتها بكل قوة ، وانطويت على نفسي استعرض صورا من العذاب والاهمال تنهش كل لحظات عمري .. ووصلت الى تلك المرحلة من العمر التي يتفتح فيها قلب الفتاة على دنيا جديدة ويحاول عقلها ان يحلق الى آفاق غريبة عنها ، فاقبلت على الحياة مخلفة الوحدة الفارغة لاعب من الدنيا .. من كل ما فيها من مباهج ومتع ، فبدات ابحث وبلهفة عن رجل افتح له قلبي ليمسح عنه كل بؤسي وشقائي ، فما وجدت الا شابا تافها أو مغرورا .. لم اجد ما كنت اصبو اليه فعدت الى حيث كنت ، اشد ضياعا من ذي قبل ، وشعور يكمن في كل ذرة في اعماقي بانني ساظل وحيدة والى الابد ..

فان كانت الوحدة مرضا كما تقولين فمرضي لا شفاء منه ...

— لكنك يا نجاح ترفضين اليد المخلصة التي تمتد لتنشلك من دنيا فارغة ... تحاولين خنق النور الذي سينير لك درب الخلاص من سجنك والذي سيقودك الى شطآن وارفة كلها سعادة وحب وخير ...

— حسنا .. لكن لا تنسي ان تلك اليد هي نفسها التي كانت صاحبة الاثر الاقوى في دفعي الى حيث احيى .. وان النور الذي تقولين انني احاول خنقه هو السراب الذي قادني الى سجني ..

— لا .. لا يا نجاح هذه اوهام

وحيدة

بقلم ماجد ابو شرار

يصورها لك مرضك فهل المحب يدفع حبيبه الى الوحدة حيث النسيان والانكار والجفاء .. انها مجرد اوهام .. فهيا مدي يدك لمجدي فهو على العهد .

وتطرق نجاح ثم تسلخ من صدرها نفسا لاهبا وتنفض راسها بشدة مرات عدة فتنسدل ذؤابة من شعرها الاسود لتكون جزيرة سوداء وسط بحر من المرمر الابيض الرائق وتقول ..

— عفوك .. هند .. علك على حق ، لكن لاسرد لك قصتي معه ولك ان تحكمي فاما ان ابقى حيث انا مع ذكرياتي .. مع آلامي .. واما ما تريدين ..



عرفته منذ اربعة اعوام ، واذا ادعيت انني لا اعرف اليوم والساعة فانا كاذبة .. ففي ذلك اليوم وتلك الساعة تنهد قلبي على اول حب وآخره ... اليوم هو مساء نهار اول آب لعام ١٩٥٧ اما المكان فذكره لا يؤخر ولا يقدم وكل ما يهمنا منه انه كان دارا للعلم كلانا فيها غريب .. ولعل اجمل ما فيها انها كانت توفر لنا لقاء دائما وساعات صفاء وهناء لا مثيل لها .. كنت قد سمعت باسمه قبل ان اراه وعندما رايته شعرت انني اقف حيال رجل .. رجل تتمناه كل فتاة .. وانت تعرفين .. مجدي .. كما أعرفه فهو محدث لبق وصاحب شخصية جذابة يجذبك اليها .. رجولة تكمن في نفسه وتكل من عينيه خلال تصرفاته .. يحب وبشدة ان يدخل في مناظرات ومناقشات سياسية وادبية فيبدو دوما على اطلاع واسع بكل ما يتحدث فيه ، واذا تحدث فهو هادىء متزن واسع الصدر لدرجة البرود ، دائم الابتسام يثق بمقدرته ونفسه الى ابعد الحدود ، وفوق ذا فهو محب للخير يسارع الى مساعدة الغير دون طنطنة او تفاخر .. هذه الصفات والمزايا شدتني اليه وجعلتني اتمنى بيني وبين نفسي بل واصلي بحرارة ان املك يوما .. مجدي .. وجهدت ان اجلب اهتمامه فكنت اشعره دوما بحاجتي الى بعض المساعدة في الدراسة فيهب الى مساعدتي عن طيب خاطر .. كنت اتطوع للقيام باعماله الكتابية وما اكثرها فاتعب ليزول كل تعبي بكلمة شكر رقيقة وابتسامة عذبة يتحفني بها مجدي ... المهم كان لي ما اردت او هكذا توهمت .. لقد استطاع مجدي ان يحررني من وحدتي .. امسك بيدي ورماني في دنياكم وهو يراقبني بحنو وعطف .. اصبح يخصني بالكثير من اهتمامه فيقبل علي هاشا مبتسما اذا وجدني ضائعة وحيدة ويقول :

ـ ان ابتسامات الحياة اقل بكثير من دموعها .. ! فما رأيك ان نتكامل ونتضامن انا وانت لنجعل البسمة تطغي على الدمعة .. بل وتمحوها .

فلا املك الا ان ابتسم وانظر في عينيه فارى فيهما سحرا وسرا .. اما السحر فقد مسني .. اما السر فلا زال حتى اليوم سرا ..

الى ان كان يوم .. وفي الاصيل .. وكنا نسير وصمت ثقيل يكبل خطواتنا وافكار غريبة تتشاءب في رأسي مبعثها فراق قريب لا بد منه وعودة اكيدة الى الضياع والفراغ والتفاهة .. في اصيل ذلك اليوم امسك بيدي وفتل نفسه حتى واجهني وهمس ببساطة وعذوبة .

ـ « نجاح » ... هل لي .. ان اقول ... ، أحبك ..

ذهلت من المفاجأة ... وسحبت يدي من يده وتعانقت يداي امام صدري وهمست كل انملة للاخرى .. ما اسعدني ... ما اسعدني .. وشعرت بيده تتسلل الى اسفل وجهي لترفعه .. ليواجهه ..

وهمس ببحة ممزقة : اجيبني ..

لم انطق .. اومأت برأسي .. موافقة .

فعاد يهمس همسا خدرني .

ـ اذن احبك فانت لي وانا لك ..

لم انطق فتسللت يده من جديد لتحتضن يدي وتضغط عليها بقوة وحنان وعاد يرتل بخشوع .

ـ قولي معي .. الحب جمعنا وسنظل كذلك والى الابد ..

ورتلت ما قال وكلي سعادة وامل واشراق ..

وبدات واياه نرسم معالم مستقبل مشرق سعيد كل صورة من صوره تكفي لمحو شقاء كل البشر ... بيتنا الحلو في المكان البعيد .. في اعلى الرابية حيث تحتضن اشجارها الباسقة بستاننا الجميل وحيث تنحني عليه السماء حينا وتلفه بغرائها حينا آخر .. والحديقة الوارفة الظلال المعطرة الارجاء والتي سنزرعها حبا وهناء قبل ان يكسوها نيسان ورودا وازهارا ... ابننا الاول « دريد » ثم تاتي « سلام » والمجد والمستقبل لاسعد زوجين .. لي وله ..

وافترقنا وكان لا بد من ذلك ، عدنا سويا هنا ثم سافر هو الى مركز عمله الجديد وهمس وهو يودعني :

ـ انني اترك معك يا « نجاح » اقدس واطهر ما في حياتي فكوني عليه امينة وله حافظة .. انه قلبي ..

ومضى على فراقنا شهر ثم آخر وحبي له يقوى وشوقي اليه يزداد ومعالم مستقبل رائع الجمال تلوح لي كل يوم خلف افق فاتن مشرق بالحب والحياة .. ارسل لي في رسالته الاولى يقول « حبي لك .. حياة لي .. » وفي رسالة اخرى « لا تنسي الامانة التي تركتها معك تعهديها بحبك وعطفك ورعايتك .. انها قلبي .. سلامي له .. »

ومضت شهور اصبحت بمجموعها عاما .. عاما طويلا من السهر والقلق والشوق والحنين وبدأت رسائله تقل ولهجتها تفتر حتى خفت عليها من الانقطاع .. وانقطعت .. ، وحاولت ان اجد له اي مبرر فما وجدت ... مخلصة انا في حبه الى أبعد حدود الاخلاص ، اذكر وبكثير من الاعتزاز بانني ما تنازلت امامه عن شيء من كرامتي أو مثلي حتى في لحظات الحب التي كانت تنقلنا الى جو اثيري مفعم بالنشوة والانطلاق .. لا زلت اذكر كلماته تلفح وجهي وتذيب قلبي .. « احترمتك يا نجاح قبل ان احبك فكل ما فيك يدعو الى الاحترام الشديد ومن حسن حظي ان احترامي هذا اصبح حبا .. شكرا للظروف .. »

وجاء الصيف .. وعزائي اني قد اراه .. ولم يحضر .. هكذا قالت شقيقته ، زاد عذابي وعاد الضياع يسحقني والتمزق ينفذ الى اعمق ذرة في جسدي واخيرا علمت ما علم به الجميع .. غدرني .. فتنته زميلته في العمل « نادية » فسلا حبي ونسي كل ما كان بيننا ولم يكتف بذلك بل امعن في تعذيبي حين احضر « نادية » وعرفها باهله وظن الجميع انها ستكون له .. فانطويت على نفسي وجراحات قلبي تنز الما وغيظا .. اسودت ايامي وما عدت اشعر بطعم الحياة التي كفرت بها ونقمت على كل من فيها وحاولت ان اروض قلبي على كرهه وبغضه فما استطعت وكلما فشلت في ذلك او غلت في ارتياد مجاهل الوحدة تائهة في شعابها محافظة على عزتي وكبريائي .. وكنت انت يا « هند » تنقلين لي أخباره اولا باول .. غدر بنادية وتركها ثم حاول ان يبني له علاقة مع « سميرة » فصدته واخيرا وبعد ان فشل يعود الي انا .. يرسلك، لتقولي ببساطة : ان مجدي يذكرك بحبه وهو يريدك له والى الابد .. اي حب هذا واي ابد ذاك !! حب المتقلب الذي لا يستمر ابده اكثر من شهور .. !! لا يا « هند » .. لا تحاولي اقناعي .. فانا بنت الشقاء .. وظل الوحدة .. وسابقى والى الابد وحيدة .. !

الخليل ـ الاردن ماجد ابو شرار

عبيد ... ولكنهم شعراء

بقلم محمد ثابت ابودان

***

لا اكون مغاليا اذا قلت : ان العرب هم أهل الشعر واصحاب الادب ، ذلك لان كل دارس للاداب العربية يجد انه قلما يخلو عصر من العصور الا وعند العرب شاعر مبدع او خطيب مصقع او كاتب صاحب بيان مشرق .

والمجتمع العربي ــ كغيره من المجتمعات ــ عرف نظام الرق فترة طويلة من الزمان ، وكثر الرقيق في المجتمع العربي فكان لهم اكبر الاثر في الامة العربية وفي تطور حياتها السياسية والاجتماعية ، ولقد اثر هؤلاء العبيد في الادب العربي وكان لهم اكثر من شاعر واديب .

وقد حفظت لنا كتب الادب الشيء الكثير عن ادب العبيد وشعرهم فكان منهم من تفوق ــ بحق وجدارة ــ على الاحرار من الشعراء .

ولو ذهبنا ندرس كل الشعراء العبيد لضاق بنا المقام ولاستغرق منا الصفحات ، وحسبنا ان نلم بزعمائهم وقادتهم ، مبتدئين بعنترة العبسي . وقد عده ابو عبيدة في الطبقة الثالثة من الشعراء وذكره صاحب الجمهرة ثاني اصحاب المجمهرات ، وقد ذكر شعره عند النبي (ص) فقال «ما وصف لي اعرابي قط فأحببت ان اراه الا عنترة» ومن محاسن شعره في الفخر قوله :

بكرت تخوفني الحتوف كانني … اصبحت عن غرض الحتوف بمعزل
فاجبتها ان المنية منهل … لا بد ان اسقى بكاس المنهل
ولقد ابيت على الطوى واظله … حتى انال به كريم الماكل
واذا الكتيبة احجمت وتلاحظت … الفيت خيرا من معم مخول
والخيل تعلم والفوارس انني … فرقت جمعهم بطعنة فيصل

ومن جميل شعره قوله :

هل غادر الشعراء من متردم … ام هل عرفت الدار بعد توهم
يا دار عبلة بالجواء تكلمي … وعمي صباحا دار عبلة واسلمي
دار لآنسة غضيض طرفها … طوع العناق لذيذة المبتسم

والسليك بن السلكة ، عبد ايضا ، ولكنه عبد متمرد انوف ، يأبى الضيم والذل ، ولا يرضى حياة الخضوع والخنوع ، فيثور على المجتمع والدولة ، ليحيا حياة السطو والتشرد ، يهاجم القوافل فيسلب الاموال وينهش الاعراض ويفخر اذا لقي الجموع التي فيها (الحوفزان) سيد قومه :

كراديس فيها الحوفزان وحوله … فوارس همام متى يدع يركبوا

ويجدر بنا أن لا ننسى سحيم عبد بني الحسحاس الذي يختلف الاختلاف كله عن عنترة والسليك في عبوديته وفي شعره ، فيقذف شعره شررا يحرق :

ولقد تحدر من جبين فتاتكم … عرق على جنب الوساد رطيب

ويقول الاستاذ عباس محمود العقاد فيه [واحسب هذا العبد الفاجر امام الشعر المكشوف في اللغة العربية قاطبة . ومن كلامه ما يروى في هذا المقام وما لا يروى . ومنه ما سمعه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال له : انك لمقتول ! .. وقد كان كما قال] ويقول صاحب طبقات فحول الشعراء لما سمع الناس بالبيت السابق ، اخذوه شاربا ثملا فعرضوا عليه نسوة الحي حتى مرت عليه التي يظنونها به ، فاهوى لها ، فقتلوه لما تحقق عندهم .

وهو لا يبالي ان يكون دميم الخلقة ، بشع الوجه ، قصير القوام ، حقير الشأن ، مختلط النسب اذا استطاع ان يقول في نساء اسياده :

اتيت نساء الحارثيين غدوة … بوجه براه الله غير جميل
فشبهنني كلبا ولست بفوقه … ولا دونه ان كان غير قليل

وبعد ان تطورت الحياة الاجتماعية عند العرب بعد الفتح الاسلامي ، وبعد أن عرفوا لذة الهدوء ومتعة السكينة ، ومعنى الحضارة ، فكان من نتيجة ذلك ان تغيرت اساليب انشائهم وادبهم وارتفع الشعر عن طور الجاهلية والبداوة ، فما عادوا يفخرون بالسلب والغزو والاغارة . وفي هذا العصر نبغ بعض الشعراء من العبيد . منهم نصيب مولى عبد العزيز بن مروان ، الذي نبغ في الشعر وتمكن من اللغة ، حتى انه كان كثيرا ما يبز الفرزدق ويفوز بجوائز الخلفاء وفي هذا يقول له الفرزدق :

وخير الشعر اكرمه رجالا … وشر الشعر ما قال العبيد

وكان النقاد والشعراء في عصره يقولون عنه انه اشعر بني جلدته لينزلوه في منزلة دون التي يدعونها لانفسهم وهي منزلة الشاعر الاول بين العرب . فقال لهم « واشعر الانس والجن » . ويحكى ان جريرا مر به وهو ينشد . فقال له : فانت اشعر اهل جلدتك ــ وكان نصيب اسود اللون ــ فقال له نصيب : وجلدتك يا ابا حرزه ! ..

وقد رضي شاعرنا بما قسم له ورضي بالعبودية على انها امر واقع لا فرار منه ولهذا نراه يمدح الخلفاء تزلفا وتقربا فيقول في عبد العزيز بن مروان :

لعبد العزيز على قومه … وغيرهم من ظاهره
فبابك اسهل ابوابهم … ودارك ماهولة عامره
فمنك العطاء ومنا الثناء … بكل محبرة سائره

وينسب اليه هذا البيت :

اهيم بدعد ما حييت فان امت … فيا ويح دعد من يهيم بها بعدي

فقال له عبد الملك بن مروان : أما كان الاجدر ان تقول :

اهيم بهند ما حييت فان امت … فلا صلحت هند لذي خلة بعدي

فقال له نصيب : فداك امي وابي ما ينبغي ذلك لملك .

ومن العبيد من احبوا سادتهم حبا جما ، وغالوا في مودتهم والدفاع عنهم مودة لا تجدها عند الاقربين والادنين ومنهم سديف مولى السفاح ، وكان يحب بني هاشم ويذود عنهم ، وقد راى عند السفاح مرة جماعة من بني امية جلوسا لديه فقال للسفاح غاضبا :

لا تقيلن عبد شمس عثارا … واقطعن كل رقلة وغراس
ضعفهم اظهر التودد فيهم … وبهم منكم كحز المواسي

الحب والسقم

من وحي صيف في لندن

يا حسن احييت لي حلما فرشت له ... دربا من الزهر بالافواف يبتسم
لما رايتك صاح القلب من شغف ... وجدتها ، وطفا في جفني الحلم
هدهدته بين اضلاعي وظل على ... مهد الهوى هانئا يلهو ويحتكم
خمرية اللون ، لو صلى لفتنتها ... في رهبة اتقياء الناس ، ما اثموا
تنساب في هالة بالنور سابحة ... بها المدام انتشى والسكر والنغم
كانها موجة عذراء يحملها ... الى الغيوب ، ندى الاصباح والنسم
يا ربة الكبرياء الحلو معذرة ... ان خانني خافق في البوح او قلم
فراح شعري يوشي كل رائعة ... بسحر عينيك والآهات تضطرم
فهل انا غير انسان له قمم ... يا طالما احتفشت احلامه القمم
عروس (فينيسيا) ما (لندن) وطنا ... لنا ، ولا اهلها الاصهاد والرحم
انا غريبان ، فلندمل محبتنا ... جراح قلبين ، يطوى فيهما الالم

الشارقة ... صقر بن سلطان القاسمي

وقال ثانية :

لا يغرنك ما ترى من وجوه ... ان تحت الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع الصوت حتى ... لا ترى فوق ظهرها أمويا

وهناك طرف اخر من الولاء نلقى فيه زند بن الجون الحبشي المكنى بأبي دلامه ، ويخطىء من يظن ان خضوع ابي دلامه قد انساه عبوديته ورقه ، فكان دائما يحاول الانتصاف لنفسه في قوالب شعرية تفيض سخرية والما . فقد مدح المهدي مرة فقال :

ادعوك بالرحم التي هي جمعت ... في القرب بين قريبنا والابعد

فغضب الخليفة الغيور الذي تقوم دولته كلها على اساس من النسب متين ، ويجمع كل اعتزازه في اصالته وعراقته وانتمائه الى الرسول العربي (ص) والى الصفوة من قريش قبل الاسلام . فصاح به : ويلك اي رحم بيني وبينك ؟ وكانما اكتفى ابو دلامه بهذا التذكير فرجع الى الدعابة يقول : ابونا آدم وامنا حواء انسيتها يا امير المؤمنين ؟ ..

ويقول الاستاذ عباس محمود العقاد في هذا الشأن [ولعل الخلفاء كانوا يحسون منه عقدة النسب هذه فيحرجونه بها كلما سنحت لهم سانحة حرج ، ومن ذلك انه دخل على المهدي وعنده رهط من بني هاشم فاقسم ليقطعن لسانه ان لم يهج احدا ممن في المجلس ، وهذا هو المازق الذي خلص منه ضحية النسب بهجاء نفسه وزاد عليه فسجل لهم لؤمه كانه يقول : ان كان هذا الذي يعجبكم فلا اباليه واسمعوه :

الا ابلغ اليك ابا دلامه ... فليس من الكرام ولا كرامه
اذا لبس العمامة قلت قرد ... وخنزير اذا خلع العمامه
جمعت دمامة وجمعت لؤما ... كذاك اللؤم تتبعه الدمامه

وقد افادته سخريته اكثر مما افادت الشجاعة عنترة ، فقد دخل شاعرنا على المنصور وسخر من شعائر دولته علنا فقال :

وكنا نرجى من امام زيادة ... فجاد بطول زاده في القلانس
تراها على هام الرجال كانها ... دنان يهود جللت بالبرانس

وكان شعار ذلك العهد لبس السواد واطالة القلانس وان يعلق الجندي سيفه الى خلفه وان يكتب على ظهره [فسيكفيكهم الله] فلما سال المنصور ابا دلامه عن حاله في الدولة الجديدة اجاب بغير اناة ولا روية : شرحال .. السواد لباسي ووجهي في وسطي وسيفي في عجزي وكتاب الله [وراء ظهري] . ولو قالها غيره لكان لقي وجه ربه وذهب مذموما مدحورا ولكنها عصمة الشعر ودالة الادب وظرافة النكتة .

تلك ثلة من الشعراء العبيد في اللغة العربية من عهد الجاهلية الى عهد الدولة العباسية وهذه الفئة دليل واضح على ان العبودية لا تمحو السليقة الشعرية والموهبة الادبية اذا كانت في نفس رجل مطبوع سواء عاش عيشة الامراء أم عيشة الارقاء .

حلب ... محمد ثابت ابودان



اندريه موروا

ANDRE MAUROIS

اتصالات مخطرة .. لدي لاكلو

بقلم اندريه موروا

ترجمة يوسف عبد المسيح ثروة

* * *

هذا كتاب كان له مصير غريب وهو مشهور ويعد من الطف القصص الفرنسية . ومع ذلك فمكانة المؤلف ، في تواريخ الادب ، مكانة صغيرة او غير مذكورة منذ القدم . وعلى سبيل المثال سانت بوف الذي يتحدث عن معظم الكتاب المغمورين ، لا يكرس له سوى كلمات قلائل . اما فاغيه ، بدراسته للقرن الثامن عشر ، فيهمله واما الاخرون فيقرون بوجود « اتصالات مخطرة » باعتباره كتابا ملعونا ينضح كبريتا . تباهى « جيد » بمحبته للكتاب ولكن مباهاته لا تختلف عن صداقته للشيطان . واذن فهل هذا مؤلف مثير للفضائح ؟ انه مكتوب بلغة مجردة صافية تعيد الى ذاكرتنا لغة راسين وروشفوكو واحيانا لغة بوسويه . انه لا يحتوي كلمة واحدة سافلة ، وحينما يصف مشاهد او اوضاعا جريئة يفعل ذلك بحصافة تدهش معاصرينا ، واذا ما قورن باي صحفة من كتب همنغوي ، كالدويل او فرانسواز ساغان لظهر كاتبه « لا كلو » مؤلفا ذا قلب نقي صاف . واذن لماذا اثار الكاتب خوفا وغضبا على هذا النطاق ، بينما كان موضع اعجاب جمهور المتأدبين والادباء ؟ هذا ما سنحاول ايضاحه .

مؤلف الكتاب

لاكلو ، او بالحري كوديرلو دي لاكلو واحد من هؤلاء الكتاب ، الذين يدينون بمجدهم الى كتاب واحد . ولو لم تر قصة « اتصالات مخطرة » الوجود لظل المؤلف نسيا منسيا . كانت روح لاكلو تشبه روح ستندال فهي مستعدة لاي عمل جريء ، ولكنه مر خلال الحياة مقنعا يصعب القبض عليه . من المعروف انه كان رجلا بارد الطبع ، المحيا بغير لطف ، « طويل القامة ، نحيف البنية ، ممتقع الوجه ، يرتدي دائما سترة سوداء » ولما زاره ستندال في اواخر حياته ، تذكر جنرالا عجوزا للمدفعية في مقر الجيش بميلانو ومما قاله « انني قمت بزيارته من اجل (اتصالات مخطرة) » .

لم تكن للملازم الشاب مؤهلات تجعل منه « لفلاسا » (١) فرنسيا . فمن ١٧٦٩ الى ١٧٧٥ كان ضابطا في غرينوبل وهي احسن حامية للذين يبحثون المتعة واللهو ، حيث اخلاق « الاشراف والاعيان » رخوة سائبة . وهناك وضع نفسه موضع المراقب ، ومما قاله :ـ « تسلم الشبان المال من خليلاتهم الغنيات وبهذا المال كسوا انفسهم ابهى كساء واعالوا خليلاتهم الفقيرات » بيد ان لاكلو نفسه لم يشتهر بهذا النوع من السلوك ... لكنه احب التحدث الى السيدات واحب ان يكون موضع ثقتهن ، والسيدات (عادة) كثيرات الميل للثقة بالمراقبين غير المحاربين خلافا للامر مع الفاتحين العظام ، وهن ماهرات في سرد غرامياتهن . افاد هنري جيمس ومارسيل براوست وحتى تولستوي فائدة عظيمة من الثرثرة النسوية ، واحيانا كانت توضع قصص عظيمة من هذا القيل والقال .

كان لاكلو معجبا برتشاردسن وروسو وقد قرا مرتين كلا من « كلاريسا » و « هلويزه الجديدة » الامر الذي ساعده على التقنية القصصية ، كما قدمت اليه مدينة غرينوبل الشخوص والنكت . ومن المعتقد ان مركيزة تدعى دي لاتور دوبين مونتوبان هي النسخة الاصلية للمركيزة دي ميرتول . واذا ما وجب علينا الاعتراف بـ « اتصالات مخطرة » على انها صورة دقيقة للاشراف والاعيان في غرينوبل في القرن الثامن عشر ، فان اخلاق هؤلاء كانت منحطة انحطاطا مرعبا . لكن القاصين احيانا يقدمون الينا « ما هو في الواقع قصة عدد ضئيل من الشبان الفاجرين والنساء المومسات » على انه هو الطاغي في وقتهم . اما سائر سكان المدينة فكانوا يعيشون عيشة عائلية اعتيادية معقولة، بينما حفنة من المتكلبين الفاسقين تملأ المجالس والصحف بفضائح مخاطراتهم .

ومما ينبغي اضافته : ان لاكلو الذي وصل الى مرتبة النبلاء بفلتة من فلتات الحظ السعيد ، كان يكره (المجتمع

(١) لفلاس : شخصية ماجنة خليعة ، من ابطال قصة (كلاريسا) للكاتب الانكليزي هارلو ، المترجم .

الرفيع الشأن) وكان يجد مسرة في فضح معايبه المرعبة. فضابط فقير مثل لاكلو لا بد له ان يستاء من هؤلاء النبلاء العظام الذين وصلوا الى المراتب العسكرية العليا بكل سهولة . حتى انه لم يسمح له بالذهاب الى امريكا مع روشامبو بحثا عن المجد ، لان ذلك كان وقفا على الاسر العظيمة من احزاب : سيغور ولوزون ونويه . أن «اتصالات مخطرة » بكونها قصة تشبه « زواج فيغارو » كدراما . انها كراسة تهاجم طبقة قوية سافلة الاخلاق ، محدودة على ما هي عليه من غنى . يمتنع لاكلو عن التكلم في السياسة ، ولكن القارىء يحمل على المقت (مقت طبقة معينة) كما يحمل على استخلاص نتائج معينة .

اثار الكتاب ضجة عظيمة وقد نشرت منه خمسون طبعة اثناء حياة لاكلو . وقد جرت محاولات للتثبت من شخوص (القصة) والتعرف على أصحابها . وفي الوقت الذي كانت فيه النبالة ثورية كالبرجوازية ، اثار القاء هذه القنبلة هياجا مستحبا . ومن الجدير ملاحظته ، ان طبقة اجتماعية سواء اكانت النبالة او البرجوازية تعامل الذين يطعنون فيها معاملة احسن من معاملة الذين يتمسحون بأذيالها ويثنون عليها . فكل شخص سواء في فرساي ام في باريس اراد التعرف بالمؤلف. انزعج رئيسه (الكولونيل): ضابط قاص ومتهكم (كلبي) ... هذا امر لا يليق . بيد ان لاكلو كان مدفعيا ممتازا ، وقد تمكن الدفع من شراء صكوك الغفران للقصة . اسف بعض قرائه للصورة الدكناء التي رسمها ، لكنهم كالوا له المديح لأطلاعه على المواطف وموهبته في وضع العقدة ومهارته في ابداع شخوص لا ينسون وبساطة اسلوبه (الطبيعية) . والعجيب في الامر ان هذا الكاتب الموهوب توقف عن الكتابة بعد النصر الاول الذي حققه . لقد كان هاويا من هواة العبقرية ثم عاد فاصبح ضابطا في الأقليم مرة اخرى .

وفي سنته الثالثة والاربعين جلبت نظره شابة في لا روشيل وهي الانسة سولانج ميري دوبيري شقيقة الاميرال . انها كانت قد قرات « صلات مخطرة » فقالت « لن يضع المسيو لاكلو قدمه في صالوننا . » نقل هذا الكلام الى لاكلو ، فقال معلقا « لن تمر ستة اشهر الا واكون قد تزوجت الانسة دوبيري » وهذا الامر يشبه : على الاقل ، امر فالمون بطل « صلات مخطرة » . انه اغرى سولان دوبيري واحبلها ومن ثم رتق الفتق فتزوجها مخالفا بذلك اسلوب فالمون ، (كان لاكلو) من اشد الازواج عاطفية ، ومن مظاهر تلك العاطفية ، انه كتب الى زوجته بعد اقترانه بها بمدة اثنتي عشرة سنة قائلا « لقد مضت علينا اثنتا عشرة سنة ، وانا مدين بسعادتي اليك ، ان الماضي هو ضمانة المستقبل . وانني ارى بكل سرور انك تشعرين بحبي ، ولكن اسمحي لي لاقول لك بانه كان ينبغي لك التاكد من ذلك في غضون الاثنتي عشرة سنة الماضية » .

... لقد كان يحب عائلته حبا جما حتى انه وضع خطة لكتابة قصة ثانية يبرهن بها ان السعادة لا تعدو جدران العائلة . والصعوبة في اثارة الأهتمام بغير اللجوء الى التقلبات الرومانسية دفعته الى نفض يديه من هذه الخطة . لقد كان على حق فيما فعل وبدون شك . لان الزواج الصالح يصنع القصص الرديئة . كان اندريه جيد مسرورا لان لاكلو نبذ خطة كانت على طرفي نقيض من عبقريته ، وكذلك لم يعتقد بأن مبدعا عظيما للشخوص الشيطانية يمكن ان يحب الفضيلة باخلاص . كتب جيد قائلا « لا شك بان لاكلو سار مع الشيطان يدا بيد » اما انا فلست متاكدا تماما . وابسط من ذلك انني أقول : ادرك لاكلو ان الشيطان سيعينه على ايجاد القراء . او هو كما قال المؤلف نفسه « بعد كتابتي لشيء من الشعر ودراستي لوظيفة لن تقودني الى مستقبل عظيم ، قررت ان اكتب مؤلفا سيخرج عن الطريق المطروقة وسيحدث صخبا عظيما تظل انعكاساته داوية في العالم بعدما اكون قد ذهبت انا » اذا كان هذا هدفه فقد حققه كل التحقيق.

قدم الفيكونت دي نوا ، وهو احد المعجبين بلاكلو ، قدمه الى دوق اورليان فما كان من الاخير الا ان جعله سكرتيرا لاوامره . وفي عهد الثورة ، وفي بيت هذا الامير الذي سيطر عليه الى الحد الذي يستطيع انسان ما السيطرة على مثل ذلك الذهن المتقلب ، نفذ لاكلو مؤامرات (شيطانية) ضد الملك والملكة . آمل الدوق الاطاحة بالملك والملكة ، من طريق الاخلال بالامن والحصول على ولاية عهد المملكة ، وقد حرضه لاكلو على ذلك وحاول مساعدته .

اما عواطفه الباطنية فكانت اشد عنفا . و (لذا) دخل النادي اليعقوبي واصبح عضوا متنفذا فيه . وفي ١٧٩٢ ارسله دانتون الى الجيش على ان يعمل في هيئة المارشال العجوز لوكنر حتى يعوض عن عجز ذلك الجندي الاجنبي. اعاد لاكلو ، وهو الضابط الممتاز ، تنظيم الجيش وعبد الطريق للنصر في فالمي . ولكن خيانة قائده ديموريه جعلته مشبوها وسببت توقيفه . ولم ينقذه من (المقصلة) الا انهيار عهد الارهاب وهلاك روبسبير . وبعد تعيينه جنرالا على عهد نابليون قاد مدفعية جيش (الراين) ومن ثم جيش (ايطاليا) وبعدئذ نقل الى كتيبة (مارا) في نابولي وانيطت به مسئولية الدفاع عن تارانتو . فمات هناك متاثرا بالديزنتري . هكذا انتهت حياة ضابط موهوب جعل اسمه شهيرا بكتابة فريدة من فرائد القصص .

القصة وشخوصها

كان من الطبيعي ان قارئا لـ « كلاريسا » لا بد له ان يفكر في كتابة قصة على شكل رسائل وهو شكل اصطناعي نوعا ما . ان ماجريات الحياة الرئيسة تاخذ مكانها في الكلام والاعمال ، ولكن الرسائل قادرة على سردها ووصفها. ان هذه الامور تعبر عن نفسها باسلوب معجب ، هو اسلوب القرن الثامن عشر ، تلك الفترة التي كانت فيه

خريجة مدرسة الرهبنة الناشئة تستطيع ان تكتب بديباجة تخزي كتاب يومنا هذا .

في هذا الكتاب مجموعتان من الشخوص : الاغوال والضحايا . ومن الاوائل المركيزة دي ميرتول وهي سيدة عظيمة داعرة مستكلبة خائنة ، اذا وجدت ما يبرر الانتقام لنفسها لا تتردد من تمزيق جميع القوانين الاخلاقية التي يتمسك بها الاخرون ، ومنهم الفيكونت دي ڤالمون وهو دون جوان ممتهن وخبير في القنص النسوي ، كان غالبا تحت سيطرة مدام دي ميرتول واحيانا كان يثور عليها . ومن الاواخر مدام دي تورفيل وهي امرأة جميلة ورعة وزوجة متصنعة الحشمة من نساء الطبقة المتوسطة ، كانت تريد ان تحب زوجها بسلام . وسيسيل ڤولانج ، الشابة الجاهلة ، الشهوانية بغير علمها ، التي ارادت امها ان تزوجها من الكونت دي كيركور (العجوز) — وهو في السادسة والثلاثين — الا انها ابت الا ان تحب الشاب الشيفاليه دانسيني وهذا الاخير بادل سيسيل الحب ، ومع ذلك فرضت عليه مدام دي ميرتول ان يكون عشيقها بغير سند من حب وتعلق .

ان الصلات ، اذن ، متشابكة ومتعددة . كيركور الذي سيتزوج سيسيل الشابة كان عشيق مدام ميرتول ثم خانها . ولذا ترغب (المدام) في الثأر منه ، ولهذا الغرض تنوي استخدام ڤالمون الذي كان يوما عشيقها ايضا ولكنه ظل صديقا لها . ومن هنا انعدم الرياء بين ڤالمون ومدام ميرتول . لقد سرا معا وسعدا وقد يسعدا مرة اخرى بغير عاطفة . انهما ينفذان عمليات معينة كرجال العصابات من غير ثقة متقابلة ولكن مع احترام مهني متبادل .

ماذا تطلب مدام دي ميرتول من ڤالمون ؟ انها تريده ان يغوي سيسيل فولانج ويجعلها عشيقته قبل ان تقترن بكيركور الذي سيلعب دورا هزليا . ثم انه ليس من شيء مؤذ في الخدمة التي طلب اليه تنفيذها ، بل على الضد من ذلك تماما . فسيسيل فتاة جميلة جدا في (ربيعها) الخامس عشر . فلم لا يقطف هذه الوردة وهي لما تزل في كمها . لم يكن ڤالمون متحمسا اول الامر . فاغواء فتاة ساذجة ، لا تعرف شيئا من الدنيا ، مشروع غير جدير بمواهبه . انه اشتغل بمشروع سيجلب له مجدا ارفع ومسرة امتع ، وهو الاستيلاء على مدام دي تورفيل التي لا تطال عصمتها ، السيدة العبوس شبه القديسة . واذن فاستلام تلك المرأة الورعة هو الهدف الذي يرنو اليه . ان خطته العامة لا توجب عليه التكلم عن الحب بل عن الدين . وبأمل اعادته الى حظيرة الدين لا بد لها من استقباله . ان الشيطان يجعل نفسه راهبا لكي يصبح عشيقا .

ولا تمضي الا أيسر مدة حتى تتشابك المؤامرات الثلاث . يطلب دانسيني الشاب من ڤالمون ان يكتب له رسائل الى حبيبة بعد ان طردته أم سيسيل . أن خيانة صديق تضيف شيئا من التوابل على اغواء فتاة بريئة . ثم يأخذ ڤالمون بالتطلع الى سيسيل وبحجة ايصال رسائل دانسيني يذهب الى غرفة نومها ليلا ويسرق قبلة ثم اكثر من ذلك ، وهكذا يصبح عشيق فتاة جذابة تحيرت مما حدث لها ، فجسدها يلتذ بڤالمون، اما قلبها فلا يزال متعلقا بدانسيني.

الا ان هذا النجاح لم يمنع ڤالمون من متابعة الحملة على مدام دي تورفيل . واخيرا يصل الى نقطة التكلم معها عن الحب ، فتحاول الفرار ، ولكن مقاومتها تهيج رغبات ڤالمون . ان له من الاسباب ما يحمله على الاعتقاد بانتصاره، لقد سقطت المرأة المسكينة ضحية حبه ، فكيف سينال النصر النهائي . ان اقدم الخدع احسنها . يتظاهر باليأس والقنوط ويقول : لا بد لي من الالتجاء الى دير ، « انني اما ان املكك او سأموت » ولما تراوغه يهمس بلهجة مريبة : « اذن فليكن الموت ! » عندئذ تقع بين ذراعيه فاقدة الوعي، لقد أنتصر ..

تمت مصائب الضحية والان جاء وقت جزاء المذنبين . ظنت مدام تورفيل باستسلامها الى ڤالمون انها تؤكد نجاته ويبدو انه احبها حبا مخلصا . لكن كيف تسمح المركيزة دي ميرتول بانتصار الفضيلة او العاطفة ؟ وهذا ما حملها على السخرية من ڤالمون وتحديه على أن يقطع علاقاته بمدام تورفيل ، وهذا التحدي يثير ڤالمون : انه سينبذ مدام دي تورفيل ويحاول استعادة المركيزة وانطلاقا من محض غروره يقطع علاقاته بالمرأة الباهرة التي استولى عليها من مدة قريبة ، ويرسل اليها رسالة خشنة مقززة املتها عليه المركيزة : « غرقت » مدام دي تورفيل « في الاشمئزاز الذاتي » بعد خيبة املها وقنوطها ، وماتت على عجل متأثرة بتبكيت الضمير .

ثم تتشاجر مدام دي ميرتول مع ڤالمون وتبوح بحقيقة سيسيل فولانج الى دانسيني . اما الاخير فيبارز ڤالمون ويقتله . وتدخل سيسيل بعد فضيحتها الى دير للرهبنة . يتبقى من كل ما سبق مدام ميرتول ، انها تعاقب عقابا مرعبا . لقد كانت منشغلة في دعوى على نتيجتها يتوقف مصيرها فتخسر تلك الدعوى وتجد نفسها محطمة . ثم تصاب بالجدري وتبقى على قيد الحياة بعد تشويه معالمها وفقدانها لاحدى عينيها . وهذا امر مرعب حقا (يذكرنا) بقول اللورد بيرون : « آه يا نيميسيس (٢) العظيمة ، من لا يرتجف من التفكير في المصائب التي يمكن ان تسببها رابطة مخطرة واحدة ؟ » وهكذا تنتهي هذه المسرحية المفرطة في لا اخلاقيتها ، بعد ان يكون المسرح قد اكتظ بالجثث وهذه حال تذكرنا بخاتمة (هاملت) .

---

(٢) نيميسيس : هي الهة الانتقام . من كلام المترجم.

هل هذه المخاطرات المظلمة مقبولة عقلا ؟ من المؤكد ان عادات العصر كانت متحللة متحررة تماما . ففي المجتمع الراقي قلما كان يرى الزوج زوجه . انهما عاشا في بيت واحد وهذا كل ما في الامر . كان الشعور العميق نادرا ، اذ عد امرا هزليا مضحكا . وكل عاشقين ، يحب احدهما الاخر كثيرا ينشران « السأم والضبط » حولهما . ذلك انهما يرفضان القيام باللعبة . وفي هذا التحلل (الاخلاقي) المتطرف باءت الاخلاق بالخسران وربح المجتمع . يقول بيزنفال بهذا الشأن : «ان دلال الرجال وغنج النساء حافظا على حيوتهم وامداهم بالمخاطر المثيرة كل يوم . » وبذا قلت الغيرة . « الرجل والمراة يجذب كل منها الاخر فيتقاربان ثم يفترقان وبعدها يتقاربان مرة اخرى . »

وايا ما كانت الحال ، ظلت هذه الغراميات سرا نوعا . اذ ظلت الاخلاق والسلوك والملامح النفسية محترمة وكذا اللغة بمفرداتها . اما حرية التصرف فكانت غير منعكسة فيما يقال من كلام . (تتحدث شخوص لاكلو بكل تأدب حتى في اشد اللحظات حراجة) فاذا ما قبض زوج خليلته في الجرم المشهود يقول لها « يا للوقاحة مدام ! كنت اتمنى ان يراك اي شخص الا انا . . . » ولم تكن الطبقة البريطانية النبيلة اقل تظاهرا بالحشمة من النبالة الفرنسية . يشبه فالمون بايرون في بعض الخصائص ولا بد ان الاخير كان قد قرا لاكلو فعمل باستطاعته لتقليد بطله .

اعد قراءة مراسلة بايرون والليدي ميلبورن فترى انهما يتكلمان عن العاب الحب بالنبرة نفسها التي يستخدمها فالمون ومدام دي ميرتول . ان موقفهما تجاه ضحاياهما موقف متحجر سليط ومشاكلهما ابعد ما تكون من العاطفة بحيث تسيطر الالية (التقنية) على شؤونها . ماذا يجب ان يقال لكي تستلم المراة ؟ ان المسألة مسألة خطط (تاكتيكية) وليست مسألة حب . والخلاف الوحيد بين بايرون وفالمون ان الاول اقل تحجر قلب من الثاني . كان احيانا يستبقي على شرف المراة رحمة منه كما فعل مع الليدي فرنسيس وبستر واحيانا كان يرمي قلبه في حلبة القنص كما صنع باغوستا ، اخته من احد ابويه : لما راودها عن نفسها فاغواها ثم احبها .

وعلى كل حال ، فان مدام دي ميرتول لم تكن لتعرف لا الشفقة ولا الحب. اما فالمون فهو نفسه يحطم حياة سيسيل البريئة بغير وخز من ضمير ، فهل من الطبيعي وهل من المحتمل ان يكون انسان على هذا القدر من الخبث والاذى ؟ وفوق كل شيء فهل من المعقول ان يكون انسان بهذه الوحشية والقسوة في الحب ، بينما عاطفة الحب هذه تولد رقة وتقربا الى المحبوب الشريك ؟ هنا تكمن دراما دون جوان برمتها ، تلك الشخصية التي اوحت بما أوحت به من أدب هائل ؛ ذلك الانسان الذي كان موضع جاذبية النساء دائما .

كيف يتكون دون جوان ما ؟ ولماذا فالمون قاس الى هذا الحد ؟ تساعدنا قضية بايرون قليلا لفهم المسألة . كان بايرون عاطفيا الى ان خانته المراة التي كانت حبيبته الاولى فقضى كل حياته منتقما من كل النساء لهذه الخيانة . وقد لعب الغرور وروح الانتقام في انتصاراته دورا اعظم من دور الرغبة . اما فالمون فهو مثل هؤلاء الدكتاتوريين الذين يهاجمون البلدان (المسالمة) البريئة لكي يظهروا ما عندهم من جيوش جيدة . ان لغته هي لغة المحارب واحيانا لغة المهندس بغير ان يعرف من الحب شيئا . (ومما قاله في هذا الشان) : « .. والى هذا المدى ، يا صديقتي اللطيفة، اعتقد انك ستجدين ما فعلت منطبقا على خطة صافية ستفرحك ، وسترين انني لم اتجاوز المبادىء الاصيلة لذلك النوع من الحرب التي رقبناها كثيرا ... فاحكمي علي كما تحكمين على تورين او فردريك (٣) . لقد اجبرت العدوة على دخول المعركة ، في الوقت الذي تحاشت فيه الصراع ، وذلك باستخدام المناورات الحصيفة ... لقد اوحيت لها بالثقة حتى اقطع عليها الطريق بسهولة في تراجعها ، وقبل الاشتباك الفعلي افسحت المجال للرعب كي يحل محل الثقة ، لم اترك شيئا للمصادفة الا اعتبار الفوائد العظيمة في حالة النصر والاعتماد على الاحتياطي في حالة الهزيمة ، وفي الختام ، لم ادخل المعركة الا بعد تأكدي من تراجع مضمون يوفر لي حماية ما استطعت من الاستيلاء عليه من مغانم سابقة . »

ان عشيقا مثل فالمون لا بد ان يكون (ستراتيجيا) وقد قورن بمصارع الثيران . ولذا فسقوط امراة والاستيلاء عليها يعدلان القتل . واذا ما تمنعت النساء كما هي الحال بالقياس الى سيسيل ومدام دي تورفيل ؛ اخذن بالمؤامرة الماكرة . ان القضية (لعبة درامية) بمجموعها . وكما ان المصارع لا يحب مقاتلة الثور الكسول ، كذلك فالمون قرين دون جوان بحاجة الى المقاومة الشديدة وبحاجة الى الدموع من اجل مسرته ... وهو يقول بهذا الصدد : « ليس يكفيني ان املكها (المراة) بل ارادتي تريدها ان تقدم نفسها لي . » (ومن هنا تلعب الارادة دورها الاكبر (٤) ومالك الا ان تقرا الرسالة (٨) التي تسرد فيها مدام دي ميرتول قصة حياتها لفالمون . ليس من حياة رتبت هذا الترتيب ، حتى ابسط ملامحها ، وتعابير وجهها وصوتها ، كل شيء سائر وفق قواعد الضبط . كانت تحصل دائما على ضمانات لسلامتها ضد عشاقها ؛ و هي تقول بهذا الصدد : « اذا ما توقعت انقطاعا للصلة كان لا

---

(٣) الاول هو من القواد الفرنسيين المشهورين والثاني هو الملك البروسي المعروف ، المترجم .

(٤) من كلام المترجم .

بد لي ان احرق ، تحت ستار السخرية والاهانة ، كل اثر صحيح لتلك الصلة الذي ربما حصل عليه هؤلاء الرجال الخطرون . » وفي قراءتنا لهذه الرسالة المرعبة الشهيرة لا بد ان تتذكر دبلوماسي عهد (النهضة) وابطال ستندال ايضا . ان ابطال (النهضة) شحذوا ارادتهم قصد الاستيلاء على السلطة ، اما مدام دي ميرتول وفالمون فقد نعلا ذلك قصد هدف واحد : هو الجنس او الانتقام الجنسي .

وقد يبدو من المغالاة ابداع كل هذه الرسائل العظيمة من اجل مثل هذا الهدف ... يكتب مالرو في هذا الشأن : « ان امراة ذات طاقة كتلك الطاقة ، امراة كان لا بد لستندال ان يودعها خططا عظيمة ، لا مندوحة لها من الاهتمام والتوكيد على خيانة زوجة عشيقها قبل تركه لها ، وعندئذ تكون هذه القصة قصة شاذة ، اذا كان الكتاب مجرد تطبيق للارادة على الاهداف الجنسية . ولكن الامر يختلف تماما : فهو (شهونة) الارادة ؛ اي مزجها بالجنس ومضاعفتها . » ولما كانت المرة لدى لاكلو مرتبطة بافكار الحرب والصيد وضبط النفس ، تلك الامور التي لا تنفصل عن الارادة ، فهي لا تختلف . في شيء ـ عن الامر بالقياس الى ستندال . فجوليان سوريل في «الاحمر والاسود» يجبر نفسه رغم الخطر ان يمس يد مدام رينال وان يتسلق الجدار الى غرفة ماتيلدا ، ومسراته المنبعثة من هذه الانتصارات تفوق تلك التي تنبعث من التماس الجسدي. وخلافا للاكلو فان الاخلاقيين لم ينتقدوا ستندال لانه كان يحترم الدين والعاطفة .

ومما يجدر قوله ان عهد ستندال ، عهد الثورة والامبراطورية امدت ارادة (الانسان) بمواضيع جديرة بها . اما مجتمع القرن الثامن عشر وخاصة حاميات الاقاليم فلم يكن للناس منافذ لطاقتهم غير الغزو الغرامي.. وكان الغرام لعبة الضباط الشهيرة وتلهيتهم المحببة وهذا ما فعله لاكلو نفسه حيث اصطاد سولانج دوبيري في لاروشيل . فجاءت الثورة وقدمت له فرصة ليكرس ارادته وذكاءه لامور اهم . وحين وضع بودلير ملاحظات على كتاب « صلات مخطرة » قال : « الثورة من صنع رجال شهوانيين ، ولذا فالكتب الفاسقة تفسر الثورة وتعلق عليها شرحا وتوضيحا » . وافراد المجتمع نفسه المغرور الكسول واجهوا الموت بشجاعة وشرف حين لقنهم تلك الدراما العظيمة (كما ان النبالة الفرنسية السخيفة واجهت السكين والمشنقة ببسالة معجبة) هؤلاء الذين وضعوا (مجدهم) في انتصارات الغرام وانتصارات الحقد والضغينة كالمدام ميرتول . انها كانت تبحث عن السيطرة والانتقام اكثر من بحثها عن المسرة والحبور . لا بد انها كانت تشعر بمركب النقص في طفولتها وهذا ما لا يمكن تلطيفه الا بضروب الانتقام القاسي ... انها تستمتع بها اكثر فاكثر ، لانها على سبيل (طرطوف نسوي) (٥) تمكنت أن تعرض نفسها على العالم كامرأة فاضلة ، انها تحمل الرياء محل العبقرية ولهذا السبب ترى نفسها متفوقة على فالمون ، تكتب له قائلة : « ما الذي فعلته ولم اتفوق عليك فيه الف مرة ؟ » ....

والان دعنا نرجع الى الضحايا ؛ لعل سيسيل هي فريدة لاكلو . ليس اصعب على القاص من وصف حال فتاة مراهقة . وحالما تترك سيسيل مدرسة الرهبنة تتسلمها مدام دي ميرتول ، التي تأخذ (تثقيفها) على عاتقها ، وهي تقول بهذا الخصوص « هي حقيقة لطيفة ! بغير ان تكون لها مبادىء ولا خلق .. لا اعتقد بانها ستنفرد بعواطفها وميولها ، وكل شيء حولها يشير الى حدة احساساتها . ومع انها ليست سريعة البديهة ولا خبيثة ، الا انها تملك نوعا من الخداع الطبيعي ، ان احدنا اراد وصفه هكذا ، وهذا امر يدهشني حتى انا ، ولا بد ان يصيب هذا الخداع نجاحا كبيرا لان وجهها صورة للصراحة والاستقامة .. »

ويقول فالمون بعد انتصاره السريع : « لم اذهب الى غرفتي حتى الفجر . كنت بحاجة ماسة الى الراحة والنوم ولكني ضحيت بهما كي اكون حاضرا وقت الفطور هذا الصباح . كنت مشتاقا اشد الشوق لرؤية ردود الفعل والتعابير في الصباح التالي . انك لا تتصورين ماذا كانت تشبه هذه المرة . كان التعثر واضحا في سلوكها كما كانت الصعوبة بينة في مشيها . اغضت ناظريها ، الناظرين اللذين عرفا بالاتساع ، تحيط بهما حلقات داكنة! اما الوجه المدور فقد استطال كثيرا ! وليس من شيء ادعى للتسلية واللهو من ذلك » (والحق يقال) ان الجلادين غالبا ما يكونون شهوانيين .

يتبقى من ذلك كله مدام تورفيل التي ترفض الصراع . انها امراة رقيقة بريئة مخلصة ليس لها الا ان تموت شهيدة الحب والقرف . ولكنها ، مع ذلك ، امراة من الطبقة المتوسطة ، في حين ان المدام ميرتول سيدة عظيمة ، وهذا الامر كما نوهنا به أحد مفاتيح الكتاب . المفتاح الذي يكشف سفالة المجتمع الرفيع .

لقد جاءت الثورة من اجل القضاء على المعايب السياسية والاخلاق الفاسدة على حد سواء . اما البيوريتانية (٦) فلها اغلاطها ؟ انها تظلم الحياة ولكنها تقدم قوة فريدة الى الطبقة الحاكمة . اما تفسخ الحكام فيولد الحسد والغضب والسخرية واخيرا الانتقاض من قبل المحكومين على الحاكمين .

---

(٥) طرطوف هو احد ابطال الكاتب الفرنسي الشهير موليير ، وهو مشهود بريائه ، المترجم .

(٦) هو مذهب التقشف والاخلاص في العمل والابتعاد عن المسرات الحسية ، وهو مذهب ديني ايضا ، المترجم .

تحول ..

كريشة في مهب الريح
حيث الزوابع والاعاصير
تصفعها بشدة
فتعلوها الى اعالي الفضاء
فوق الاجواء الواسعة البعيدة
ثم تهبطها تائهة في القفر
الى حيث لا نهاية
هكذا كنت ... !

كواحد تاه في يم الحياة
حيث الصراخ والتاوهات
والروائح النتنة
تقفل دربه الطويل
فتزرع فيه بذور الالم والمرارة
وحيث ينتظر المصير بصبر واناة
كي يخلصه من عاله الكنود
عالم البغاة
هكذا صرت ؟ ....

الدار البيضاء ادريس علال الخوري

أكتاب أخلاقي أم لا اخلاقي ؟

هل « صلات مخطرة » كتاب لا اخلاقي ؟ يبدو ، على ما راينا ، ان كثيرا من النقاد يحسبون الامر كذلك ، وقد خصصوا لهذه (الفريدة) المجمع علي اصالتها ، مكانا بين الكتب الداعرة . يدافع لاكلو – في مقدمته – ضد هذه الاحكام ويقول : « يبدو لي على الاقل انه من الخدمة للاخلاق فضح الوسائل التي يستخدمها اصحاب الاخلاق الفاسدة لافساد ذوي الاخلاق الحسنة » ثم يطري على نفسه (باكتشافه) واثباته حقيقتين واقعتين قائلا : « الاولى : اي امراة ترضى باستقبال رجل لا اخلاق له لا بد لها اخيرا ان تصبح ضحيته ..والثانية : تكون الام غير حكيمة على الاقل ، اذا سمحت لاي كان ان يصبح موضع ثقة ابنتها . » ويضيف الى ذلك ان اما صالحة ذكية قالت له بعد قراءة المسودة : « اعتقد بأني سأقدم خدمة حقيقية الى ابنتي ان انا اعطيتها هذا الكتاب في يوم عرسها . »

ان عرض الاشياء بهذه الصورة فيه شيء من السذاجة، اذا كان لاكلو يؤمن بها حقا . صحيح ان الخبثاء يجازون في اخر الكتاب .. وهذا يثبت ان الجريمة لا تفيد شيئا ولكن الصحيح ايضا ان الفضيلة لا تعالج بأحسن من الرذيلة ... وفوق كل شيء أن القارىء لن يشيح بوجهه عن الاخلاق الشريرة التي يمثلها (الاشرار في هذا الكتاب) وقد يحسد عنفوان مسرتهم اكثر من الخشية من عقوباتهم . فحماسة (ابطال الكتاب) وعصمة تقديراتهم وذكاء هؤلاء الفجرة ربما تثير الاعجاب عند بعض الناس اكثر من القرف . فعلى الرغم من النهاية في جزيرة القديسة هيلينا لم تقرف قراءة سيرة نابليون احدا من الشباب المتطلعين الى القوة والسطوة .

يرى جيرودو بوضوح ان « الجمال ، موضوع الكتاب وفضيحته » يتجلى في الثنائي فالون – ميرتول ، وهو زواج شرير بين اشد متحللين غاويين في الادب ، بين رجل جميل انيق وبين امراة جذابة داهية ...

برأ بودلير ساحة لاكلو لسبب ادهى وامر . انه ينكر ان يكون لاكلو اسوا اخلاقية من كتاب (عصره) ولكنه اكثر صراحة منهم ، وفي هذا الصدد يقول : «هل اصبحت الاخلاق ارفع شأنا في القرن التاسع عشر ؟ » ويجيب على سؤاله : « كلا بل ان طاقة الشر انخفضت ، واخلت السخافة محل الفطنة . »

حقا ان الكاتب الاخلاقي الجدي يرسم دائما عالما لا اخلاقيا ، لان واجبه يقتضيه تنبيهنا لنحترس من العالم كما هو . ولو كانت الطبيعة اخلاقية لانتفى وجود (الكتاب) الاخلاقيين . ان الغرائز الطبيعية تدفع الكائنات الحية الى الصيد والصراع والاقتران الجنسي . والمجتمعات هي التي فرضت الاخلاق . واذا اصبحت الإخلاق رياء يصاب الاخلاقي الشجاع بالرعب ، لانه يظل يشير الى الحقيقة ، والحقيقة عن الانسان امر مرعب تماما . واذا ما عبر هذا الاخلاقي عن نفسه بأفكار عامة وامثال ، كما يفعل غالبا ، بغير ان يعرض شخوصا ، بدت خشونته اقل عنفا . تصور مثلا القصص التي يمكن ان تبنى على امثال الكاتب « لاروشفوكو » فستجد مائة موضوع قاس قساوة «صلات مخطرة » . ثمة سبب قوي لاتهام « صلات » باللا اخلاقية وهو ان لاكلو ضرب ضربة قوية اسطورة المقاومة الانثوية وقد تسلم هذا الراي مؤخرا جورج برنارد شو ، حيث ذهب الى حد القول : الامراة هي الصياد والرجل هو الطريدة ...

ومرة اخيرة ، هل هذه القصة اخلاقية كما ادعى مؤلفها؟ اعتقد انها تعلم الاخلاق لا بسيل المآسي التي تجرف الخبثاء في الخاتمة بل بعبث مسراتهم ... ومما يجب الاشارة اليه كي نتم ما نحن فيه ان العنصر النسوي من قراء « صلات مخطرة » اختص بخطوته (هلويز الجديدة) ايضا على ما فيها من فكرة الفضيلة ... وعلى احدنا ان يمر بعهدي الثورة والامبراطورية كي يفهم نظافة لاكلو ورقة روسو وكيف انهما تمازجا وذابا في عبقرية جديدة قدر لها ابداع « الاحمر والاسود » (٧) و « دير بارما » .

اربيل – العراق   يوسف عبد المسيح ثروة

(٧) كان البحث الماضي متعلقا بهذا الكتاب وبمؤلفه ستندال، المترجم.